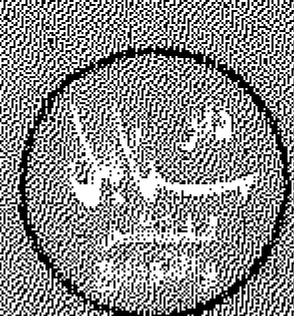


محمد الغزالي وهموم المسلمين

علاء الدين وحيد



محمد الغزالى
وهموم المسلمين

محمد الغزالى

وهموم المسلمين

علاء الدين وحيد

دار سنابل للنشر والتوزيع
المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة
ت: ٢٢٣٠٩٠٦

١١٤
و.ع

وحيد، علاء الدين.
محمد الغزالي وهموم المسلمين / علاء الدين وحيد.-
ط٢ مزيدة.- المنصورة: دار سنابل للطبع والنشر والتوزيع،
٢٠٠٨.- ١٧٥ ص؛ ٢٠سم
١- السقا، محمد الغزالي بن أحمد السقا ١٩١٧ - ١٩٩٦.
٢- الإسلام - مقالات ومحاضرات
أ- العنوان

رقم الإيداع: ٢٧٥٤ / ٢٠٠٨
تدمك: ٣ - ٠٢٤ - ٤٠٢ - ٩٧٧

(١)

الحرية والإستبداد

"الحرية صدى الفطرة ومعنى الحياة، يشب المرء من نعومته وهو يحس بأن كل ذرة فى كيانه تنشدها وتهفو إليها، وكما خلقت العين للبصر، والأذن للسمع، وكما خلق لكل جارحة أو حاسة وظيفتها التى تعتبر امتدادا لوجودها واعترافا بعملها .. كذلك خلق الإنسان ليعز لا ليذل، وليكرم لا ليهون، وليفكر بعقله، ويهوى بقلبه، ويسعى بقدمه، ويكدح بيده.

"لا يشعر وهو يباشر ذلك كله بسلطان أعلى يتحكم فى حركاته وسكناته إلا لله الفرد الصمد، ربه، ورب الناس أجمعين".

محمد الغزالى

("الإسلام والفساد السياسى" - ص٧٢)

"لا مكان فى ظل الإسلام فرعونية حاكمة، ولا قارونية كانزة، ولا كهنوتية موجهة، ولا جماهير ذلول الظهر لكل راكب أو مستغل. ومن خلال تعاليم الكتاب والسنة أدرك الناس دون تكلف ولا تقعر أن الحريات موطدة وأن الحقوق مصونة، وأن العقل ينبغى أن يفكر دون قيد، وأن أشواق الفطرة تلبى دون حرج، وأن الدولة فى الإسلام مع المظلوم حتى ينتصف وعلى الظالم حتى يعتدل".

محمد الغزالى

("هموم داعية" - ص٨)

"الإسلام لم يجعل استعباد الناس ركنا سادسا مع أركانه الخمس، ولكنه يريد أن يطهر الدنيا من أدران الاستبداد، وأن يدع تيارات الفكر الحر تقتحم كل مجال و تنساب فى كل ميدان".

محمد الغزالى

("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص١٣٧)

قتامة صورة حياتنا الإسلامية تشيع الإحباط فى أقوى القلوب إرادة وشجاعة، خاصة وأن تدهور هذه الحياة

مستمر منذ خمسين سنة على الأقل، وأن الأمور تزداد سوءاً .. فأول أمس أرحم من أمس والأمس أرحم من اليوم وهكذا يمتد الحصار. وفى هذه الأجواء يكافح الشرفاء والأمناء كفاحاً مستميتاً. وقد رسم الشيخ محمد الغزالى يوماً ملامح هذه الصورة البائسة، فيكتب:

"الحكومات الإسلامية على الإجمال دون مثيلاتها من حكومات العالم عدالة ونزاهة.

والجماهير أقل ثقافة وإنتاجاً واقتداراً على الحياة وتكاليفها.

والتقاليد السائدة تبتعد عن الإسلام الحنيف روحاً ونصاً.

فأمتنا من أفقر أمم الأرض إلى التعليم والتربية ومعرفة الذات". ("السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ط١٣ - ص١٣١)

إن حال المسلمين اليوم بالغ السوء لا يسر عدواً ولا حبيباً، وهم يعيشون فى هزائم منكرة مع أنفسهم ومع الآخرين أى فى داخلهم وخارجهم. يتعرضون لشتى الإهانات من دول العالم وهم صاغرون. يشكلون نموذجاً للجهل والتأخر والجمود والضعف المزرى، التى تعرضهم كل ساعة للضربات الموجعة التى لا يحسون بها بعد أن غلظ الجلد وتبلد الشعور. ولكن قلة من أصحاب الحس المرهف والمؤازرة الصادقة والجهاد فى سبيل الله، تفزع لما أصاب

قومـها والانحـدار المسـتمر الـذى إليـه يندفعـون، فيتصـدرون للكارثـة مـا أمكنـهم ذلـك. مـن هـؤلاء بـل فـى مقدمتـهم الشـيخ محمـد الغزالـى (٢٢ سـبتمبر ١٩١٧ - ٩ مـارس ١٩٩٦)، الـذى يصـور فـى أحـد كتبه "همـوم داعيـة" مـا يخالجـه مـن أسـى علـى حـال المسـلمين فيقـول:

"لا أدرى لمـاذا يخـالطنى شـعور بـأنى أعيـش فـى القـرن السـابع أيـام سـقوط "بغـداد" ووفـاة الدولـة العباسـية، أو بعـد ذلـك بقرنيـن أيـام سـقوط "غرناطـة" واختفـاء الإسـلام مـن "الأندلـس".

"نعـم أنـا أحيـا فـى القـرن الخـامس عشـر للـهجرة، والمسـلمون خمس العـالم ومنتشـرون فـى كـل القـارات، بيـد أن هزائم ثقيلـة تـنزل بـهم، ومؤامـرات لئيمـة تحـاك لـهم، وظلمـات كثيفـة تتجـه إلـى مسـتقبلهم، ويسـتحيل أن يبتسـم مسـلم وهـو يـرى هـذا الـهوان يكتنـف دينـه وقومـه". (ص٣).

أبـرز ملامـح الأمـم الضعيفـة انفصـام عـرى الروابـط الحقيقيـة بيـن أفرادهـا، وكـل منـهم يختفـى وراء درقتـه التـى يظنـها شـديدة الصلابـة تحميـه مـن المـهالك، بينمـا هـى فـى منتـهى الضعـف وصاحبها يتـهافت علـى نفسـه. والأمـة الإسـلامية ليسـت بدعـاً فـى ذلـك، وإن كـان هـذا السـلوك يعـادى قيـم الديـن الـذى يحـض علـى روح الجماعـة، ولكـن الضعـف والأثـرة والتسـابق علـى المـادة والاسـتغراق فـى الشـهوات يطمـس البصـيرة ويؤدى إلـى مزيـد مـن الانحـدار.

تناقض رهيب يعيشه العرب والمسلمون فى عصورهم المظلمة المستمرة حتى اليوم، يتدهورون من سيئ إلى أسوأ، والمنقذ بين أيديهم تتلى عليهم آياته طوال النهار والليل وهم صم لا يسمعون وإذا سمعوا لا يفقهون. وكلما ارتفع صوت "التسجيل" إلى عنان السماء أى إلى درجة يتجاوز السمع مؤكداً ادعاء الاستماع ومن ثم التدين، دل أكثر على تضاعف التبلد. لقد أصبح بذل الجهد الحقيقى فوق طاقتهم، والاستسلام لمستبديهم تمسح رخيص بالإيمان بالقدر، والخلاص من قيودهم ترف زائد .. كأن القرآن ليس هادياً ومفجراً لطاقات الإنسان وأقام حضارة أضاءت العالم بنورها قروناً، وخلق المسلم خلقاً جديداً بعد جاهليته الأولى. يتجاهل المسلمون هذا كله ليولوا وجوههم شطر كعبات أخرى فى الشرق والغرب تزيدهم التصاقاً بالطين والانكفاء على أنفسهم تاركين لغرائزهم وماديتهم العنان.

"الذى يقع داخل الأرض الإسلامية يثير الريب حول القيمة الإنسانية لرسالة الإسلام ومدى انتفاع أهل الأرض منها، وتلك مصيبة طامة، أن يعمل الإنسان ضد نفسه وسمعته. وسواء درى أم لم يدر فتلك نتيجة تسود لها الوجوه".

الملاحظة الجديرة بالنظر فى أحوال المسلمين المفجعة، أنهم مع ابتعادهم عن الدين وتجاهلهم لجوهر مبادئه وتعاليمه، ينتظرون الكثير من الله ولا يخجلون .. كأن الإثم

- الصغير والكبير - عاقبته المكافأة لا العقاب. ويدهشون - كأن لا عقول لهم - من النكبات التى تلاحقهم كأنهم ليسوا الفاعلين الأصليين لها والمهيئين لأسبابها بضعفهم وتخاذلهم وسوء سلوكهم. متجاهلين تماما مبادئ الخير والشر والثواب والعقاب التى تصدق على الفرد والمجموع.

"ليس لنا أن نسيء وننتظر من الله الإحسان، ونغدر بمعالم دينه وحقائق رسالته، ثم نرقب منه - سبحانه - البر والنصر. لماذا وهو القائل لنا - بعد ما حملنا أمانات الوحى: (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون). "البقرة: ١٥١".

"إن لدينا كتابا يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فإذا أبينا المشى فى هداه وإذا غطينا بأهوائنا وهجه فهل يتركنا القدر لنعبث كما نشاء؟". ("هموم داعية" - ص٣٢).

قلة من علماء الدين ومفكرى الإسلام من هى على مستوى عقيدة التوحيد .. إيمانا وأمانة وصدقا وإخلاصا، لا تجبن عن قول الحق ولا تكتم الشهادة، حريصة أن تبلغ ما تعرض رسالة السماء إلى الأمة، مهما أغضبت نظم الحكم الظالمة وساءت الجماهير المتبلدة التى تجبن عن رؤية الحقيقة وتفضل أن تدفن رؤوسها فى الرمال. فى مقدمة هؤلاء الشيخ محمد الغزالى الذى يحرص دائما على التزام الصدق مع الناس. ولا يخفى عنهم ضعفهم أو يخفف منه أو يبرر أخطاءهم، بل يصارحهم بعيوبهم مستهدفا إصلاحها -

فمعرفة الداء هى أولى خطوات العلاج، فيكتب:

"ما الذى أوصلنا إلى هذا الدرك؟ إن التقدم والتأخر ليس حظوظا عمياء! إن ما نزل بنا هو نتائج لمقدمات طال عليها الأمد .. وعلل هدت قوانا جيلا بعد جيل .. وأمتنا الكبيرة تعرضت لأدواء وبيلة خلال عصورها الخوالى. إن هذا الكيان الإسلامى تهاوى تحت ضربات المغيرين، وأصبح بين عشية وضحاها أسيرا تدميه القيود، ويرهقه الإذلال.

"لقد حدث هذا .. وكان لابد أن يحدث .. لأن المسلمين فقدوا أسباب التمكين فى الأرض فعصفت بهم الرياح الهوج .. إن الرياح مهما إشتدت لا تنقل الجبال .. ولكنها تنقل كثبان الرمال". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية - ص٦) وعلاج الحالة المهلكة البدء فيها فورا بلا تسويف، بعد تعمق الكشف و الوقوف على العلل الحقيقية التى أوصلت الأمة إلى ما يشبه الدمار. "والنصر لا يجىء باقتراح مرتجل .. إن الأسلاف تصدروا قافلة العالم بجدارة .. والأخلاف ملئوا ذيل القافلة بجدارة أيضا"! (المرجع السابق - ص٧).

ويعالج الشيخ محمد الغزالى الفارق بيننا وبين الآخرين فى "الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية":
"إن الفرق بين العالم الأول والعالم الثالث لا يرجع إلى أن المتفوقين قادرون على غزو الفضاء وصنع الطائرات العملاقة، إن هذا مظهر التفوق لا سببه.

"الواقع إن الفرق هو النشاط الذهنى عند هؤلاء والكسل الذهنى عند أولئك، هو غزارة العلم هنا وضآلة العلم هنالك، هو توفير الفرص لنمو الأقوياء فى الشعوب المتقدمة، وتوفيرها لنمو التافهين والسفلة فى الأمم المتخلفة.

"أى إنها أسباب خلقية ونفسية قبل أى شىء آخر". (ص٩٤)

ومن المؤسف أن حال المسلمين اليوم لم تعد تكفيه الصيحات أو قرع الأجراس كما كان المصلحون يصفون زمان، بل أصبحت الصدمات الكهربية كما يعبر الشيخ محمد الغزالى، هى أنسب الوسائل لإيقاظهم من سباتهم العميق بل من غيبوبتهم الشاملة.

"بعض المرضى يحتاج إلى صدمات كهربائية لتصحيح وعيه، وإيقاظ ما تخدر من حسه .. والمسلمون يحتاجون إلى أمثال هذه الصدمات كى يحسنوا الخلاص مما حل بهم، والسير على نهج يشبه أو يقارب نهج الراشدين من أسلافهم!". (المرجع السابق - ص٦).

(٢)

مذاق الحرية التى نتشهاها

"الرجال الذين لا يكسبون نصرا للدين فى مجال الحرية ليسوا أهلا لقياده، ولا أحقاء بالبقاء فى أى ميدان.

ويوم يكون المسلم أدنى من غيره فلا كرامة للدين الذى يعتنقه!".

محمد الغزالى

("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص١١٥، ١١٦)

يشكل الشيخ محمد الغزالى فى تاريخنا الحديث إحدى القمم الشاهقة التى يقل مثيلها خاصة بين أصحاب العمائم. فهو يشذ عن آلافهم بأمانته وصدقه والعقل المستنير والقلب المؤمن والفكر المتحرر من الخرافات والأباطيل ورفض التبعية للسلطان الجائر. ومن هنا جاء تأثيره فى

الملايين من المسلمين، وهو ييسر لهم معرفة جوهر الإسلام وليس الوقوف على هامشه كما يفعل الكثيرون. وفارق كبير بين داعية يصدق فى إيمانه بالله ورسوله وكتابه، وآخر يكذب فى هذا الإيمان ويتاجر بالقرآن. الأول يضع نفسه فى خدمة المسلمين مضحيا فى سبيلهم الذى هو سبيل الله، والثانى يستغلهم ويمكر بهم ويبعدهم عن قيم الدين الحقيقية، التى هى وحدانية مبرأة من الآفات، وتحرر من الخزعبلات والتماس العلم فى مختلف المجالات ومحاربة الظلم والظالمين، إلى كل السمات التى تجعله بالفعل يحقق قول الله عن المؤمنين واحدا من (خير أمة أخرجت للناس).

. ولم يكن فى الإمكان ومحمد الغزالى يتصدى لمسئوليته فى تنوير الإنسان المسلم، ألا يتصدى لأبشع ما يتعرض له المسلمون فى حاضرهم منذ قرون طويلة، من استبداد وجور حكام وقهر سلاطين بما يستتبع من ضياع حقوق وإذلال آدمية .. فكان تناوله الفدائى لقضايا الحرية ودفاعه المستميت عنها.

وما أكثر ما هفا قلبه وشدا لسانه بالأمل العذب .. حلم الحرية .. "نريد أن نستطعم مذاق الحرية التى نتشهاها...". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٧).

تعد الحرية فى نظر الكثيرين جماع القيم والفطرة التى فطر الله مخلوقاته الحية عليها، وليست قاصرة على الإنسان وحده. وبالرغم من أن هذه الفطرة فى الأمة الإسلامية قد

تحقها التلف، إلا أنها لا تزال المحرك لدى الشرفاء للدفاع عن الفضيلة والقيم.

والحرية وبغض الاستبداد عند الشيخ محمد الغزالى هى منذ البداية قضية حياتية، بعكس ما هى عند أغلب الدعاة كمالية أو هامشية. وقد تبلورت فى نفسه أكثر عندما اعتقل، وعرف هوان وإذلال فقدان الحرية وبشاعة الاعتقال. يكتب مفكرنا: "كنت أكره الاستبداد قبلا كرجل خلقه ربه حرا، فلما لعقت مرارة القلة والاستضعاف والاختطاف، وجدت زمامى يلعب به السفهاء كما كان صبية مكة يلعبون قديما بالحبل الذى ربط فيه بلال بن رباح، رسبت مشاعر الحقد فى أعماق قلبى، وفهمت كيف أن اندحار الأعداء يشفى صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم". (المرجع السابق - ص١٦).

وبينما يكون تقدير وتعظيم مفكرنا للحرية على هذا النحو إلى آخر مدى، يجيء موقف أغلب المشايخ على العكس تماما .. تجاهلا .. إن لم يكن استخفافا واستنكارا، كأنها رجس من عمل الشيطان. ولا يرجع ذلك إلى ما يعده البعض غموض القضية وعدم وضوحها فى المنظور الإسلامى، فهم يدركون جيدا أن الوحدانية تعنى عبادة الله وحده والكفر بعبادة أية آلهة أخرى .. بشرية أم مادية مهما بلغ جبروتها، بل لأن عمالتهم للحكام الطغاة تبعدهم تماما عن الوقوف مع جوهر الإسلام، فاتخذوا موقف العبيد فى تأليه سادتهم. ومن هنا جاء إقصاءهم عن منطقة حقوق

الجماهير، مؤثرين حضهم على قيامهم بالواجبات وحدها لأنها هى التى تكرس الانغماس فى خدمة الحاكم .. كأنهم خلقوا لهذه المهمة وحدها.

ونتيجة هذا التجاهل وإبعاد الأذهان المستمر عن القضية الخطيرة والتشويش عليها أيضاً، تقلصت مساحة المدافعين عن الحرية، ومن ثم ضعف خيالها فى وجدان الأمة.

وبغض الإسلام للاستبداد يأبى فى المقام الأول قبل ما يتسم به القهر من السلب والنهب والظلم وأكل الحقوق، من تعظيمه وتقديسه للحرية إلى درجة الاعتراف بحق المرء فى رفض الإيمان بالله ورسوله و عدم إكراهه على ذلك.

"الجو الذى ينشده الإسلام هو الجو الذى يتنفس فيه الإنسان هواء الحرية الطليق ملء رئتيه.

"يقبل المرء فيه على الرأى الذى يستصوبه، فلو ترك الإيمان بالله ورسوله لأنه يقتنع بذلك، فليس من سبيل لأحد على إرغامه أن يؤمن". ("الإسلام والفساد السياسى" - ص١٠٨).

والرأى الآخر هو أول ما يكره الطاغية، لأنه لا معنى له إلا الانتقاص من قدسية وسديد رأيه الذى يجب أى فكر آخر. وهذه السمة هى أولى علامات الاستبداد التى تكشف صاحبها وتفضحه، وهو يظن أنه بمأمن من انكشاف سريرته التى يحرص على إخفائها.

"إن الاستبداد الأعمى عدو منذ الأزل لدعوات الخير والبر والاستقامة والإصلاح".

والمستبد يدرك جيداً أن مصادرة الحرية تصيب الشعب في مقتل، وهي تسلبه فكره وإرادته وشجاعته، باعثة اليأس في قلبه. وهي تستهدف أولاً أثمن ما يملك الإنسان وهي حريته العقلية. وتجعله وهو يتحرك ويزاول حياته اليومية مقيداً، مهما امتدت خطوات قدمه. بعد أن انتفت مسئوليته إزاء نفسه وإزاء المجتمع وأصبح يعيش على هامش الحياة. إن القانون الإلهي والوضعي يجعلان العقل مفرقاً بين العاقل والمجنون، أي بين الإنسان المسئول وغير المسئول. وبذلك تحول الشعب المقيد إلى جماهير ناقصة غير أسوياء، يختلف الفرد فيها جذرياً عن الإنسان العادي الذي يشغل فكره وعقله.

يقول محمد الغزالي في "الإسلام والاستبداد السياسي": "الحرية العقلية كما رأيت من استقراء قصص المرسلين ركن في الدعوة إلى الله .. بل هي ركن في صحة العمل الإنساني ليستحق الثواب أو العقاب.

"وقد جاء الإسلام فتمشى مع هذا المبدأ وجعل اليقين الصحيح ثمرة النظر العميق في كتاب الكون المفتوح، وقراءة آيات الله المبثوثة في الآفاق.

"والقرآن الكريم دعوة ملحة إلى معرفة الله عن طريق التدبر في ملكوته والتفكر في صنوف خلقه.

بل إنه ليعتبر الكفار ذواب لأنهم عطلوا حواسهم وأهملوا مشاعرهم وأهدروا نعمة العقل التى أكرمهم الله بها". (ص٩٢)

ولما لم تجد قضية الحرية على المستوى الإسلامى بفضل الدعاة أولا، من تجاهل وتباعد وربما استخفاف .. كثر الخلط بشأنها والمغالطة حولها، حتى بدت عند كثيرين لغزا مستعصيا أو موضوعا لا يستأهل الاهتمام، منبت الصلة بحياة المسلمين .. مما يجعلها فى وهمهم خارج نطاق القيم الإسلامية ولا علاقة لها بعقيدة التوحيد.

"والاستبداد السياسى الذى وقعت الشعوب المسلمة فريسة له من أمد طويل، وظلت إلى اليوم ترسف فى قيوده، ليس مرده إلى أن الإسلام نقصته عناصر معينة، فأصيب معتنقوه بضعف فى كيانهم كما يصاب المحرومون من بعض الأطعمة بلين فى عظامهم أو فقر فى دمائهم.

"كلا ... ففى تعاليم الإسلام وفاء بحاجات الأمة كلها وضمان مطمئن لما تشتهى وفوق ما تشتهى من حريات وحقوق، إنما بطشت مخالب الاستبداد ببلادنا وصبغت وجوهنا بالسواد، لأن الإسلام خولف عن تعمد وإصرار، طرحت أرضا البدهيات الأولى من تعاليمه، وقام فى بلاد الإسلام حكام تسرى فى دمائهم جراثيم الإلحاد والفسوق والمنكرات فخرجوا سافرين عن أخلاقه وحدوده.

"ومع ذلك فقد فرضوا أنفسهم على الإسلام إلى يوم

الناس هذا.

"ولو أن الإسلام ظفر يوما بحريته، وأمكنته الأقدار أن ينتصف لنفسه، لكان جمهور هؤلاء الحكام بين مشنوق ومسجون". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٣٢).

يعيب التجمعات الإسلامية - حكومية وأهلية - فى القرن الأخير أنها لم تستوعب المتغيرات الجديدة التى ألمت بالمجتمع، ولم تعش عصرها كما يجب، أو ربما لأن لها حساباتها الخاصة فيما يعود عليها من كسب فى التحالف مع سياسيين ضد آخرين أو مع الملك ضد أحزاب، ومن هنا كان موقف جماعة الإخوان المسلمين ومؤسسها حسن البنا ضد دستور سنة ١٩٢٣. ومع كل ما يمكن أن يقال عن هذا الدستور من عيوب، إلا أنه استطاع بفضل الشرفاء من أبناء الوطن، أن يجاهد فى سبيل الحرية وحقوق الشعب، خاصة عندما تتاح للجماهير انتخابات نزيهة تختار فيها بحرية من يمثلها ويفوز فيها حزب الوفد كالعادة.يقول مفكرنا فى "من هنا نعلم": "من المفيد أن نذكر أن الدستور المصرى القائم (دستور ١٩٢٣) يعين إعانة تامة على تكوين حكومة إسلامية رشيدة". (ص٥٢ - ط نهضة مصر). وبالرغم من أن جماعة الإخوان المسلمين التى كان الشيخ محمد الغزالى عضوا مؤسسا فيها كانت تناصب الوفد العداء، إلا أن صاحبنا يتحمس لموقف الوفد فى الدفاع عن الدستور، ويندد بموقف جماعته فى الفرجة على المعركة الخطيرة التى تعنى حرية الأمة ومستقبلها ويرسم شيخنا صورة دقيقة

لذلك فيكتب:

"لكن الأمر الذى يقبض الصدر ويحدث الأسى أن موقف المتدينين من هذا الدستور كان قلة الاكتراث.

"فالأزهر الرسمى كان إلى جانب القصر الملكى، والهيئات الإسلامية الشعبية لم تقدر النعمة المتاحة لها فى ظل هذه الحريات المبذولة.

"ولكن شيئا من هذا لم يكن يجيز لجمهور المتدينين أن يقف متفرجا فى ميدان الصراع بين القصر والوفد على احترام هذا الدستور أو إسقاطه.

"فإن ضياع الحرية واستبداد الفرد هما مهلكة الأمم والقيم وذهاب اليوم والغد". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص١١٥).

- يكتب محمد الغزالى: "إن الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان، فتعاليم الدين تنتهى بالناس إلى عبادة ربهم وحده، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية سياسية عمياء.

"وقد راعنى أن أجد كثرة كبرى من الرجال العاملين فى الجبهة الإسلامية مذهولين عن إدراك هذه الحقيقة الخطيرة، وهم حين يدعون إلى الإسلام ينسون ما أفاده العالم من تجارب فى صراعه للحكام الظلمة الذين أساءوا إليه، وعلموه أن يحدد علائقه بهم فى دساتير مضبوطة وقوانين محكمة". (المرجع السابق - ص١٧).

ونتيجة هذا كله لم يتيسر رأى عام ينشغل بقضية الحرية ويجعلها قضية حياة أو موت، كما حدث فى مواقع كثيرة من العالم مكنتها من التخلص إلى الأبد من الظلم والظالمين والاستبداد والمستبدين. وظل الطغاة يحكمون الأمة الإسلامية إلى اليوم، بلا إقامة سد من الجهاد ضد قوى الظلام. ويعقب مفكرنا على ذلك بقوله: "لقد تتبعت أحوال طائفة من المتحدثين عن الإسلام فوجدت تصورهم لأسلوبه فى الحكم غامضاً، وآذانى أشد من ذلك أنهم وقفوا مكتوفى الأيدى أمام الافتيات المستمر على سلطان الأمة، كأن ما يحدث تحت سمعهم وبصرهم خارج عن الدائرة التى يختص الدين بالفتوى فيها.

"وقد فهم أحد الظرفاء هذا الموقف فأرسل إلى لجنة الفتوى هذا السؤال .. رجل حلف بالطلاق أن الانتخابات التى حدثت سنة كذا مزورة، فهل يطلق امرأته؟ ولم تقع لجنة الفتوى فى هذه الشرك .. ولن تقع ولو بقيت المرأة معلقة أبد الدهر"!! (الإسلام والفساد السياسى" - ص١٧-١٨).

(٣)

التصدى للقهر فريضة إسلامية

"إن الاستبداد السياسى ليس عصياناً جزئياً لتعاليم الإسلام، وليس إماتة لشرائع فرعية فيه، بل هو إفلات من ربقته ودمار على عقيدته.

وإنى والله أشك فى إسلام عدد كبير من حكام المسلمين، بل فى إسلام عدد ممن حملوا ألقاباً دينية لها رنين وبريق، واعتقد أن بقاء الكفر فى الأرض، والزيغ فى شتى الأفئدة يرجع إلى مسالك أولئك الذين شانوا تاريخنا ولوثوا دعوتنا، وأعزوا من أذل الله وأذلوا من أعز الله".

محمد الغزالى

"الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٥٦)

"تعلم المسلمون من دينهم أن طغيان الفرد فى أمة ما جريمة غليظة، وأن الحاكم لا يستمد بقاءه المشروع، ولا يستحق ذرة من التأييد، إلا إذا كان معبراً عن روح الجماعة مستقيماً مع أهدافها.

"ومن ثم فالأمة وحدها هى مصدر السلطة، والنزول على إرادتها فريضة، والخروج على رأيها تمرد .. ونصوص الدين وتجارب الحياة تتضافر كلها على توكيد ذلك".

محمد الغزالى

"الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٥٩)

والاستبداد الإسلامى قديم فى حياة الأمة. عرفه الإنسان المسلم منذ قيام الدولة الأموية وقد تحول الحكم إلى ملك عضوض بعد أن كان خلافة رشيدة. ومما يتفق وطبائع الأشياء أن تصبح الشكوى هى الظاهرة الأولى. فى حياة الجماهير قبل أية ظاهرة أخرى ... يجأرون بها .. شفاهة واستغاثة وكتابة. ولذا لم تكن صدفة أن تدخل فى تكوين خطبة الجمعة منذ زمن طويل، بعد أن ضاق بهم الحال وفشلت المقاومة فى التخلص من القهر. يكتب محمد الغزالى:

"وطالما كنت فى طفولتى استمع إلى الخطباء أيام الجمع وهم يدعون الله أن يولى أمورنا خيارنا، ولا يوليها شرارنا، وألا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وأن يحسن خلاص المسجونين - يعنون ضحايا الاستبداد لا معتادى الإجرام.

"كانت هذه الدعوات تقارن الدعاء بالمغفرة والتطلع إلى الرحمة العليا كأنما أصبحت مصائب الحكم تساوى خطايا الأفراد كلاهما فى حياة الناس ضربة لازب". ("الإسلام والاستبداد السياسى) - ص٦١).

يدعى كثير من عبيد السلاطين والمرتزقة من رجال الدين، أن الإسلام لم يناقش قضية الحرية ويجعلها أحد مبادئه الأساسية التى يطالب بها أمة التوحيد، ويعزون إلى ذلك افتقار وافتقاد دستور إسلامى مفصل محكم واضح يستوعب هذه المسئولية. ويفند مفكرنا ذلك بقوله: "وبداهة أن الإسلام لم يقتل كسرى ليستبدل به كسرى آخر، ولكنه دك أطواد الاستبداد ليمهد الطريق أمام الشعوب العانية كى تعبد رب العالمين فى أمان وحرية وسكينة. فإذا لم تضمن هذه المعانى مواد وبنود مفصلة، ففى كتاب الله وسنة رسوله حواجز هائلة دون الاستعباد والاستبداد". (المرجع السابق - ص٦٣).

والقرآن صريح العبارة فى إدانة الاستبداد .. بل هو لأهمية الحرية يعلو فى تقديرها بوضعها فى صميم الروح وشغاف القلب وحبة العين.

"من خصائص الإسلام التي امتاز بها لتقويض أركان الاستبداد - أن أوجب على كل فرد أن ينقد الخطأ وأن يوجه إلى الخير. وجعل في هذا النقد والتوجيه فريضة تتبع الإيمان، لا مباحا يتبع المشيئة، وبين الله - تبارك وتعالى - أن تقرير المعروف وأمر كل إنسان به وتغيير المنكر وزجر كل إنسان عنه، وتتبع الأعمال بالتصويت والتخطئة أيا كان مقترفها، هو سر تفضيل هذه الأمة على غيرها .. "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (سورة آل عمران: ١١). ("الإسلام والاستبداد السياسي" - ص١٤٠ - ١٤١).

ويعقب شيخنا على ذلك موضحا مدى الخسارة التي منيت بها الأمة الإسلامية، من جراء تجاهلها لهذه القيمة الأساسية وغيرها في حياتنا، ويلفت إلى جحودنا في تخففنا لمسئوليتنا وواجبنا إلى درجة الاستخفاف إن لم يكن الإنكار طوال قرون عدة .. الأمر الذي يستدعي غضب الله .. بقوله:

"والحق أن أمتنا فرطت في هذه الشعائر التي ناطها الله بها تفريطا شنيعا، فلا جرم أنها تحرم من رعاية الله، وتنالها هذه اللطمات القاسيات من يد القدر العادل.

"ذلك أن صوت الخير لم يختنق عندنا فحسب، بل كشف الشر عن وجهه الكالح، وكشر عن أنيابه الزرق صارخا مهددا". (المرجع السابق - ص١٤١).

ولما كانت قيم الحرية الإسلامية ليست شعارات فارغة المضمون أو للاستهلاك المحلى كما نجد فى الدول المتخلفة مثلنا، فقد اتصلت أسبابها بالعقيدة ذاتها التى تكافئ المؤمن بها المكافح فى سبيلها، وتعاقب المستهزئ بها المنصرف عنها. ليس هذا فحسب بل هى تحدد الوسيلة فى التعامل مع الطاغية .. مناهضته وردعه، أما الخطوة الأولى فهى احتقاره والابتعاد عنه والتنديد به - وهو لون من المقاومة يعمل على عدم إتاحة الفرصة ليكسب القهر أرضا جديدة - أى على العكس تماما مما يفعل المسلمون.

إن عقيدة التوحيد توجب كما يقول شيخنا "المجاهرة بإصلاح الأوضاع الفاسدة ومخاصمة صانعيها وحارسيهم أو مقاطعتهم ومجافاتهم.

"أما السير فى ركابهم والانتظام فى مجالسهم وموالاتهم على خبثهم فقد عدته الآية فسقا، فكيف بمن يتملقون المجرمين فى عصرنا هذا ويسترون مخازيهم ويأكلون من دنياهم على حساب دينهم؟

"إن أولئك لا دين لهم ألبتة، وإن كانوا أكثر فى حواشى الحكام والمترفين من الذباب على مباءات الأقذار ومجامع القمامة.

"ويوم تقوم سياسة أمة على كتمان الحق وهجران المعروف وإهمال المنكر وترك الأباطيل تستشرى وتستعلن، والسفاهات تطفو وتنمو، فأنى تفلح أو تنجو؟". ("الإسلام

والاستبداد السياسى" - ص١٤٤).

إن الإسلام بمبادئه الرفيعة، يعد المسلم ليكون له دوره المؤثر فى معركة الخير والشر بأبعادها الشخصية والعامة لصالح الأول .. ويهيئ له من الأسلحة المعنوية ما يشد أزره، فينشئه ويربيه ويعلمه فى ظلال القرآن والسنة الصحيحة التى لا يخالطها شائبة، مما يشكل الإنسان المسلم القوى الشجاع الذى يستشعر طوال ساعات نهاره وليله وحدانية الله والدفاع عن قيمه .. مسارعا عند أيسر بادرة بالجهاد فى سبيله.

"والإسلام يعتبر الفساد داء خبيثا، لا يقصر شره على صاحبه بل يتعداه إلى كيان الأمة كلها، وكما أن المصاب بمرض معد تصادر حرية انتقاله من مكان إلى مكان ويحجز فى مستشفى خاص حتى لا تنتشر جراثيم علته بين الناس فكذلك الشخص الفاسد، إن لم يضرب على يده ويستنكر ما بدا منه، شاع فساده ووجد فى القلوب المريضة قبولا حسنا، وفى البيئات الضعيفة مرتعا خصيبا والويل لشعب تتبجح فيه المعصية، وتسير مستعلنة من غير نكير، إنه يسير حثيثا إلى الهاوية. والحق أن المجتمع يدفع عن نفسه حين يحبس أولئك الحمقى ويمنعهم عن غوايتهم"! (المرجع السابق - ص١٤٧).

ويقول مفكرنا فى موضع آخر:

"المسلم يجب أن يكون قواما شهيدا بالقسط مقررا

للحق ولو لم يغير جهده المبذول شيئاً من الواقع المريض، وحسبه أنه لم يترك الفجور يسير هادئاً، بل أثار عليه ما استطاع من شغب". (المرجع السابق - ص١٤٩).

نزلت الأديان السماوية لتقيم العدل وتدحر الظلم الكبير قبل الصغير، والأول هو الذى يتعرض له الألوف المؤلفة قبل الفرد أو الأفراد القلائل وهو استبداد الحكام الجائرين الذى لا ينجو من بين براثنه أحد ويحيط بكل تنفس بشرى .. "واستقراء أحوال الأنبياء مع أقوامهم يؤكد حقيقة واحدة، لم تزدها الأيام إلا صدقاً، وهو أن الاستبداد الأعمى عدو الله، وعدو رسله، وعدو الشعوب، وأنه لا قيام لحق في هذه الحياة إلا إذا طمست صور هذا الاستبداد، وسويت به الأرض، ومشت عليها الأقدام". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٧٦).

وأخطر منظومة مرتزقة الطغيان هى عمالة رجال الدين للحكم الاستبدادي فى العهود السوداء التى تتشكل أول ما تفعل لا فى الموقف الصريح بل الملتوى .. لأن الأول يفضح بينما الثانى يخدع، ويكون أوضح صورة فى عمليات الإلهاء التى تلجأ إلى المواضع الهامشية لإبعاد المسلمين عن علاج مشاكلهم وهمومهم الملحة، فيما لا طائل حقيقياً من ورائه. بينما يرتع الطاغية وأعوانه ومنهم رجال الدين، فيما يغدق به القهر عليهم من نعم على حساب الأمة المحاصرة، ولتظل فى غيبوبة عقلية تقصيها عن واقعها المتردى وحالها البائس. ولتدور اهتماماتها فى قضايا

جانبيـة تمتـص حيويتـها واهتماماتـها وهـى تظـن أنـها بـالفعل تشـارك مشـاركة فعالـة فـى تقريـر مصيرهـا الدينـى والدنيـوى، وأنـها ليسـت متفرجـة علـى قضيتـها .. وهـو النجـاح الأكـبر لتـهميش العقـل.

يكتـب محمـد الغزالـى:

"إن السـلطات المسـتبدة قديمـاً وحديثـاً تسـرها الخلافـات العلميـة التـى لا تمسـها. هـل الشـك ينقـض الوضـوء أم لا؟ هـل رؤيـة اللـه فـى الآخـرة ممكنـة أم ممتنعـة؟ هـل قـراءة الإمـام تكفـى عـن المصليـن أم لا تكفـى؟!

"إن حكـام الجـور يتمنـون لـو غـرق الجمـهور فـى هـذه القضايـا فلـم يخـرج. لكنـه يشـعر بضـر بـالغ عندمـا يقـال: هـل الدولـة لخدمـة فـرد أم مبـدأ؟ لمـاذا يكـون المـال دولـة بيـن بعـض النـاس؟ هـل يعيـش النـاس - كمـا ولـدوا - أحـراراً أم تسـتعبدهم سـياط الفراعنـة حينـاً ولقمـة الخـبز حينـاً؟". ("السـنة النبويـة بيـن أهـل الفقـه وأهـل الحديـث" - ط٣ - ص١٣).

ويؤكـد محمـد الغزالـى فـى "الفسـاد السياسـى فـى المجتمعـات العربيـة والإسـلامية":

"لـن نحـرز نجاحـاً يذكـر خـلال القـرن الجديـد إذا بقينـا علـى فقـهنا الضيـق المحـدود الـذى عشـنا بـه خـلال القـرون الأخـيرة، فـإن هـذا الفقـه لـم يعـالج الخلـل المتـوارث فـى علاقـة الحكومـات بالشـعوب، ولـم يسـاند الحريـات الصحيحـة، ولـم ينـم

القدرات على علاج الأخطاء السياسية والاقتصادية الشائعة في بلادنا.

"وهذه السلبية في الفكر الديني ترشحه للموت، ولا تؤهله للحياة.

"ومثل ذلك إجماع أهل الدين على أن الظلم حرام، والكذب حرام، ومع ذلك فهم يسكتون سكوت المقابر إذا وقع تزوير عام في انتخابات خدمة لفرد، كأن الكذب يستنكر إذا كان بسيطا، ويسلم له إذا كان مركبا!

"ومن المستحيل أن تصلح الأوضاع السياسية للمسلمين إذا كان الدين في وعيهم يهتم بفقه الحيض والنفاس، ولا يكترث لفقه المال والحكم، بل إن مستقبل المسلمين كله سيخضع للحديث الصحيح "لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع". (ص٩٧).

وهؤلاء الذين يعيبون على المكتبة الإسلامية القديمة، عدم احتفالها بموضوع الدولة الإسلامية والشورى وأركانها، وتفصيل هذه المبادئ وتعميقها في حياة الأمة ويندون بتقاعس العلماء .. يجهلون أو يتجاهلون معاناة العلماء الشرفاء في عصور الاستبداد التي كانت تعد عليهم أنفاسهم، وما لقيه الأئمة الأربعة مثلا من سجن وتعذيب وضرب بالسياط وتصفية جسدية .. كانت أمثلة رائعة للبسالة والتضحية في سبيل الله، بعد أن فشل الحكم الجائر

فى ضمهم إلى صفوفه واستمالتهم إليه، فلم يبق إلا التهديد والوعيد ثم النكال بهم والتعذيب حتى الموت .. خاصة بعد أن غار الحكام - وهذا باعث آخر - من شعبية العلماء وحب الجماهير لهم.

رفض أبو حنيفة تولى القضاء أيام المنصور، مدركاً أن العرض لا يستهدف حكمه بين الناس بالعدل، بل إيهام الأمة أنه قد انضم إلى الطاغية معضداً حكمه الاستبدادى. وجاء اعتذاره الذى أغضب الحاكم الذى ينتظر دائماً الإذعان لقهره، فأمر بسجنه إلى أن يموت فيه. ولم ينج مالك بن أنس هو الآخر من عقاب الطغيان، وكانت جريمته أنه أعلن رأيه ورأى الدين بصراحة فى عدم شرعية أخذ ولاية العهد لابن أمير المؤمنين الطاغية، التى جرت فى أجواء مقيدة غير حرة، مما أغضب الأب وأمر بالقبض على الإمام الكبير وضربه بالسياط حتى انخلعت كتفاه!

وهكذا تعرض غيرهما من الأئمة وعلماء الدين الأمناء لعقاب المستبدين والنتيجة كما يقول شيخنا:

"أن أثر الاستبداد ظهر فى تثبيط الهمم عن علاج المسائل المتعلقة بأصل الحكم، ومن ثم اشتغل المسلمون بألوان من الترف العقلى وعكفوا على البحوث الفلسفية النظرية والفرعية مما لا يضير الحكام المجرمين أن تؤلف فيه المجلدات الضخام ..". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص١٩٧).

وجرثومة الاستبداد المهلكة .. يختلف البعض في التعامل معها؛ فالنظريون الذين لا يعرفونها إلا بالسماع أو على الورق، يتخففون في القضاء عليها، وأقصى عقابهم أن يطرد الطاغية من البلاد. أما البعض الآخر الذى ذاق القهر امتهاناً للآدمية وانتهاكاً للإنسانية وحرماناً من الحرية وتعذيباً في المعتقلات، فمستحيل عنده أن يفلت المستبد بجرائمه وينجو من آثامه في حق الملايين. فمن أذل شعبه ينبغي أن يدفع الثمن غالياً من ماله وحياته، ليكون عبرة لكل طاغية. ويذهب محمد الغزالي إلى ذلك، فيقول:

"تفكير المستبدين واحد على اختلاف العصور، وأنهم لا يتركون غرورهم مهما تلطف المصلحون لهم.

"ولو أمكن تقليم أظافرهم لوقاية الأمم من شرهم ثم تركهم أحياء بعد ذلك يفعلون ما يشاءون لأشرنا بذلك. ولكن الآيات تتضافر على اتهام الاستبداد السياسي بأن الشر ذاتي فيه فلا أمان لحضارة إلا إذا خلت منه". ("الإسلام والاستبداد السياسي" - ص٧٦).

يقف كثير من المسلمين الغلابة مصعوقين إزاء جبروت الاستبداد الذى يجعله بهذه الوحشية التي لا يعرفها حيوان الغابة، وبقواه الأسطورية - أو التي تبدو كذلك - وما طرأ على أصحابه من تغيير أنساهم أنفسهم. وإن كان ذلك ينتهي بالبسطاء منهم إلى التساؤل في كنه هؤلاء الجبابرة .. هل هم حقاً مسلمون يؤمنون بالله ورسوله؟ وإذا لم يكن فأية

عقيدة يدينون بها وتسوقهم إلى أفعالهم الآثمة؟ أم هى فى الحقيقة أفعال عقل ملتاث اختلطت عليه الأمور؟

"إن لسياسة الحكم وأسلوب المحافظة عليه لمن ظفروا به، ديناً آخر، صارح الوحى، صارم البطش، يؤول القرآن على هواه، وينزل السنة على مشتهاه، ويحب ويبغض، ويعفو وينتقم لا لله ورسوله، بل لأثرته وعنجهيته فحسب، وتلك أولى بركات الاستبداد السياسى، منذ أفلت الأمر من رأى الأمة .. إلى رأى أفراد". (المرجع السابق - ص٢٠٣).

وبنظرة محمد الغزالى الموضوعية التى تحيط بقضيته ولا تفلت منها جانباً أو تجعله يغضى لسبب أو لآخر عن باعث لحساب آخر .. يدين فى موضوع الاستبداد الطاغية والجماهير على السواء. الأول الذى قهر والآخرون الذين رضوا واستسلموا .. مستقصياً العلل التى تفرز هذا المناخ المريض وتمكن له فى الأرض الإسلامية، وهى تكاد تكون متشابهة فى الجانبين من الفساد والضعف والتكالب على الدنيا .. وهى أشياء تمنع انتصاب القامة وارتفاع الهامة، مفضلة الاستخذاء والانحناء الذى ييسر الركوع والسجود لغير الله، ولذا تنقطع الصلة بالسماء.

"إن تنظيف العالم الإسلامى من الغرور والغش والادعاء، ومن السرقة والنهب والاستعلاء، كفيل باجتثاث جذور الاستبداد، وإراحة الدين والدنيا من ويلاته". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٣٣).

هـذه الصـورة الكليـة، فمـاذا تكشـف تفاصيلـها؟

علامـة الاسـتبداد الأولـى هـى التخلـف والضعـف مـهما بـدت علـى دولتـه مـن مظـاهر القـوة والمنعـة فـهى مصطنعـة وغـير حقيقيـة تنـهار عنـد أقـل لمسـة. والسـبب الطغيـان المشـغول ليـل نـهار بنفسـه وكنـوزه التـى نهبـها ينفـق عليـها وقتـه كلـه، ويضـع كـل شـىء آخـر تحـت الأقـدام، غـير عـابئ أن تقـوى الدولـة ويتقـدم الشـعب، الـذى يحتـاج فـى هـذه الحالـة إلـى رجـال أكفـاء أمنـاء يقومـون بالمهمـة، وهـو عنصـر يبغضـه المسـتبد ولا يتعـامل معـه. كمـا أن هـذا الارتقـاء الحقيقـى بـالفرد والمجتمـع نقيـض منـهج نظـام الحكـم الشـمولى، ومعنـاه لـو حـدث زوال دولتـه والمحصلـة كمـا يقـول الشـيخ محمـد الغزالـى:

"إن الحكـم الفـردى - مـن قديـم - أهلـك الحـرث والنسـل، وفـرض ألوانـاً مـن الجـدب العقلـى والشـلل الأدبـى أذوت الآمـال، وأقنطـت الرجـال.

"والغريـب أن هـذا التخريـب ينـاقض مناقضـة ظـاهرة توجيـهات الإسـلام فـى كـل ناحيـة".

"إن الاسـتبداد السياسـى يبيـد كـل أسـباب الارتقـاء والتقـدم، ولا تصلـح الحيـاة برجـل يزعـم العلـم بكـل شـىء، ويتـهم النـاس كلـهم بأنـهم دونـه وعيـاً وفـهماً ..".

وفـى الشـعوب المتـأخرة جـانب كبـير يسـتنيم إلـى الـذل ويرضـخ بطبيعتـه إليـه.ولا يجـد غضاضـة فيـه، فالطغيـان عنـد البعـض فـى منـاخ القـهر يفيـد الصغـار والكبـار، ويتيـح لـهم وهـم

يتمرغون فى الوحل، المزيد من التسلق وبيع أنفسهم نظير أجر ضئيل أو كبير. لذلك فهم يبغضون زوال البغى الذى يسد عليهم أبواب الانحراف. ويكرهون من الحرية اعتمادها على المبادئ الرفيعة فى إقامة صروحها التى تبعد عنها قوى الشر.

يكتب محمد الغزالى:

"الجهل المركب شائع بين ألوف مؤلفة من الناس، ويعتبر خاصة من خواص الطبقات النابتة فى الحكم والسلطان.

"إن عقولهم تشبه العدسات المقعرة، تثبت فيها صور ممسوخة للأشخاص والأشياء، فلا يرون الحياة إلا من خلالها.

"غير أن هذه الأنظار المريضة لا تغير من واقع الأمر شيئاً ولا ينبغى أن يحترم المصلحون جهلها". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٨١).

وتتسم عصور الاستبداد بظاهرة انتشار الأقزام الذين يجدون فرصتهم فى الظهور بشكل مكثف يتطلبه النظام، وانعدام العمالقة الذين يعاملون بأسلوب الوأد فيختفون بفعل فاعل فى كل المجالات. والظاهرة لا تدل على شذوذ بل تتفق وطبائع الأشياء، والمناخ المسمم الذى يفرغ الأشياء من مضمونها والألفاظ من معانيها، وعمليات غسيل المخ المستمرة فى دور العلم والمساجد ووسائل الإعلام تضلل الكبار قبل الصغار بالمفاهيم المغلوطة، كما تنشىء

أجيالا تافهة ضعيفة لا تقوى على الصمود فى معركة، بعد أن سقطت كل القلاع التى كان الإنسان المسلم يتحصن بها، من تربية وتعليم وقيم وفضائل إسلامية.

وهذا كله محصلة الحكم الشمولى والطاغية يستعين بمن هم على شاكلته فسادا فى كل مجالات الحياة، ويبعد الشرفاء أصحاب الكفايات اعتمادا على منهج استبدادى عرفناه فى مصر أيام جمال عبد الناصر بعد الانقلاب العسكرى فى ٢٣ يولية ١٩٥٢، وهو "تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة"، كأن الوطن ضيعة ورثها الطاغية عن أبيه يعبث بها ما يشاء. ويشير الشيخ محمد الغزالى إلى عنصر آخر .. "فالفرد الحاكم بأمره يكره أن تكون لأحد نعمة عليه، لأنه يريد أن يمتن على الناس أجمعين، لا أن يتطامن إلى صنيع ذى فضل"! (المرجع السابق - ص ١٩٤ - ١٩٥).

وخطورة الاستبداد إذا استمر زمنا طويلا ولم يقض عليه فى مهده وقبل أن يتنمر ويستأسد، أنه يستلب من الأمة قوتها وإرادتها وتصبح منهارة أو "مخوخة" من الداخل بعد أن امتص منها القهر عافيتها وأيضا بفعل المقاومة المستمرة التى لا تنتهى. فصدامها الدائم مع الطغيان خاصة والشرفاء من بينها يناضلون وحدهم فى أكثر من معركة .. الاستبداد نفسه وزبانيته وعيونه وأبواقه من رجال القلم والإعلام والدين .. والمنتفعين بنظامه بشكل عام .. بجانب الفرق المستسلمة بطبيعتها. ويصور الشيخ محمد الغزالى هذا الحال الهابط بقوله إن: "مناعتها الخاصة ذابت فى أتون

المظالم التى جاءتها من داخلها، أى من نفسها".

ويستقرئ شيخنا الواقع وتاريخ الأمة الإسلامية، فيجد أن أكثر ما أصابها من هوان جاء أولا من بنيها وحكامها البغاة الذين حولوا الحكم من خدمة الأمة إلى التسيد عليها، ومن الكفاح فى سبيلها إلى التطاحن عليه ونهبها وسلبها.

"لو كان الحكم تكليفا مضنيا، وتضحية بالنفس والنفيس فى سبيل الله، ما اكتنفته هذه المخازى، وهكذا أهلك بعض الأمة بعضا قبل أن يهلكها الأجانب.

"واعوجاج السلوك فى الداخل مجلبة الهزائم الساحقة التى أصابت المسلمين فى الخارج". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص ١٨٥ - ١٨٦).

ويقول مفكرنا فى موضع آخر عن هؤلاء الحكام المستبدين:

"أولئك كانوا - وما زالوا - القرحة الموجعة الهابطة بقوى الشعوب، المستنزفة لدمها وحياتها، والمحطمة لكيانها ومقوماتها، بلى الإسلام بهم، وكلف - لأمر يعيينا فهمه - أن يحمل أثقالهم، فحملها، وما زال يطوف بها الآفاق حتى سقط بها. ويوم سقط بها صدعت دولته، وطردت خلافته، وأصبح آلة غثاء.

"فإذا أردنا أن ننهض من جديد فلننزح عن كاهله المتعب هذه الأوزار، ولنطلقه من قيود الاستبداد والاستعباد". (المرجع السابق - ص١٨٦).

(٤)

الطاغية والطغيان

"إنى لا أعرف دينا صب على المستبدين سوط عذاب، وأسقط اعتبارهم، وأغرى الجماهير بمناوأتهم، والانتفاض عليهم كالإسلام.

"ولا أعرف مصلحاً أدب رؤساء الدول، وكبح جماحهم وقمع وساوس الكبرياء والاشتهاء فى نفوسهم، كما فعل ذلك نبى الإسلام. لقد كسر القيود وحرر العبيد، ووضع التعاليم التى تجعل الحاكم يتحرى العدل والمحكوم يكره الضيم.

"أجل .. لقد فعل ذلك كله، وليس يغض من حقيقته عمق الفجوة بين الحاكم والمحكوم فى بلادنا المريضة المهيضة.

"البلاد التى لا تعرف الدنيا اليوم أترف من أمرائها وأتفه من فقرائها ..".

محمد الغزالى

("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٦٩)

يظن الكثيرون ظناً خاطئاً أن المستبدين قبل أن يلوا الحكم ويستولوا عليه عنوة، كانوا غير ذلك .. منتهى الديمقراطية والمثل العليا. وهذا غير صحيح بالقطع. فأغلب الطغاة نشئوا منذ صغرهم على حب السيطرة والاستيلاء على ما ليس من حقهم واحتقار الآخرين خاصة الشرفاء وعشاق الحرية. فإذا وثبوا على الحكم داسوا على القانون والجماهير وتجاوزوا الحدود وفجروا.

يفسر الشيخ محمد الغزالى أعماق الطغاة، فيقول:

"قد يكون هؤلاء الطغاة جاحدين، يعرفون الحق ويستكبرون النزول على حكمه، وقد يكون الباطل مكيناً فى أنفسهم، ضارب الجذور فى أعماقها فهم يضلون ويوقنون بأنهم مهتدون، ويفجرون ويعلنون أنهم يحسنون، ويتألهون ويحسبون أن هذا حقهم لا يمارى فيه إلا مكابر. ويسرقون أقوات الجماهير وهم يزعمون أنهم ينالون بعض ما سخره الحظ لهم". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٨١).

ومن طبائع الأشياء كما يراها الشيخ محمد الغزالى حاجة

الطاغية إلى تكميم الأفواه، لا لأنه رقيق القلب يؤلمه سماع أنين الشعب المعذب، بل لأنه يدرك أن ما يمكن أن يصدر عن الجماهير من زمجرة ضده، تعلنه برفضها لحكمه وبغضها لقهره وظلمه.

"أما الحاكم المجرم فيريد جواً يسوده الصمت الرهيب، لأنه يرى أن الأفواه لو نطقت فستفضح خبأه وتكشف سره. وهنا الطامة الكبرى.

"ولذلك كان من خصائص الاستبداد السياسي فى كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه". (المرجع السابق - ص١٤٠).

ويساعد الطغاة فى طغيانهم الجهالة السائدة والتى تقلص المدارك الإنسانية وتحاصر الوعى وتعمل على إلصاق أصحابها بالطين وتساوى بين السمو والوضاعة، بل لعلها إلى الثانية أكثر اطمئناناً لأنه يمكن فهمها ومسايرتها فى هذا المناخ الفاسد. ولأن المستبد من نفس الطينة فهو أكثر فهماً لهذه النوعية من الجماهير.

"إن الحكام المستبدين كالحشرات القذرة لا تعيش أبداً فى جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة والجهالة القاتمة". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٨٢).

ولأن الحاكم الطاغية على عداء مع شعبه ولا يعتمد عليه، ويكره من الإسلام أن يكون مع الحرية ضد القهر،

فلابد لـه أن يعوض هـذا النقص بحليف قوى يعينه فى الملمات وضد ناسه إذا لزم الأمر، ولا يجده إلا فى الدول الكبرى وهى دائما ذات مصالح فى الدول الصغرى، وهى أيضا تعادى عقيدة التوحيد. وتكون النتيجة تبعية حكامنا لها والسير فى ركابها واتباع أهوائها. ومن هنا انبثق اتفاق الجانبين فى معاداة الإسلام. ولعل الشيخ محمد الغزالى من أوائل المفكرين الذين وقفوا على هذا الملمح، فاضحا عمالة أغلب حكامنا المسيرين بأهواء خارجية.

"إن الصهيونيين والصليبيين والملحدين والعلمانيين من وراء المجازر الرهيبة التى تعرض لها الدعاة وجمهور المؤمنين فى أرجاء العالم الإسلامى الكبير.

"وقد استبنت أن مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبد الناصر كانا مخلبى قط فى مؤامرات محبوكة للإجهاز على الإسلام وبنيه". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٨٩).

ونموذج الطاغية وما يملك من سلطان ممتد رهيب لا تعرفه أعتى الدول الديمقراطية وأقواها فى العالم، يجذب إليه فريقا كبيرا من الناس الذين تغرهم القوة الغاشمة ويلتمسون فى صاحبه المثال المفضل الذى يتطلعون إلى أن يكونوا إياه فى الحياة العامة. بجانب أن الحكم فى الدول المتأخرة يتبوأ موقعا مثيرا فى نفوس الناس، فهو المانح المانع وهى ميزة تقترب فى وجدانهم من أن تكون - مع قلة

الإيمان - المحيى المميت.

وهذا يفسر تساقط الكثيرين على الحكام أو الطغاة الشرقيين، وانشغال الجماهير المتهافتة واستعدادها أن تكون فى ركابهم يعملون فى "السياسة" التى كلها بركة .. تاركة الأعمال الأخرى مهما تبلغ أهميتها فى حياة الناس.

"إن النزعة القبلية القديمة عندنا أشعرتنا خطأ أن الشرف يأتى من مناصب الحكم وحدها، ومن ثم دار الكفاح حولها فى مرارة وقسوة.

"ولو كان الفرد يدرك أنه يستطيع بلوغ القمم عن طرق أخرى غير رياسة العامة وإصدار الأوامر، لاتجهت ملكاته إلى هذه الطرق الأخرى فبرز فيها وساد، فقه الغربيون هذا المنطق السديد وبنوا عليه حياتهم وأقاموا حضارتهم، فلم يصابوا من داخلهم بهذه الآفات التى أصبنا بها فى حياتنا وحضارتنا". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص١٨٧).

ولا غرابة أن يكون المستبد على ما هو عليه، فتكوينه فى الأساس يشجع إذا ما وجد الفرصة المتاحة على انتهاج القمع أداة فى السيطرة .. فهو لا يؤمن إلا بنفسه، فذاته المتضخمة تملأ عليه الأفق وتسد عليه الرؤية. فهو كما يظن ذاته جماع العبقريات والفضائل وأكمل من خلق الله. ومن هنا يتضاءل البشر ما عداه، ولا يرى من فى الساحة إلا هواماً .. وتبدأ مسيرة الظلم. ويحدد الغزالى خصائص الطاغية، فإذا أولها كبره وتعاليه، فيستشعر أنه ليس من

طينة البشر، وإنما هو وحده خلاصة الخلاصة .. "سورات الكبر التى تجيش فى نفس صاحب السلطة العامة فتحمله من مكانه حيث يعيش مع الناس على ظهر الأرض، إلى سماء يتخيلها وينظر إلى الناس من عليائها، فإذا هو يرى العمالقة أقزاما، ومن دونهم هباء، ويحسب الخير الذى يعيش الناس فيه فيض السحاب الهامى من يده المباركة". (المرجع السابق - ص٣٤).

والكبر عند الحاكم المطلق يتعاظم شيئا فشيئا، فيقود إلى الكفر والشرك بالله، بعد أن يجد صاحبه ذاته - بالحديد والنار - يتحكم فى الأمة، وخيل إليه بالفعل أنه يحيى ويميت ولا راد لقضائه، وقد أصبحت الجماهير كبيرها وصغيرها طوع أمره .. "والكبر والشرك يبدأ عوجا فى تصرف صغير فلا تكون له فداحة الكبر بالله، ولا يزال ينمو حتى يتحول بطرا على كل حق وغمطا لكل فرد، وعندئذ يكون الكبر والكفر قرينين. إنه كبر الرؤساء الفجرة والأمراء الظلمة والمستبدين المتألهين". (المرجع السابق - ص٣٥، ٣٦).

ويشكل هذا اللون من الشرك كما يقول مفكرنا .. وثنية سياسية، لها ككل وثنية تكوينها ومنهجها وتعاليمها تضم الإله والعباد. فهى ليست معادلة من طرف واحد كما يظن كثيرون تقتصر على الطاغية وحده فى القمة، بل هى دائرة كهربائية يستكمل الموجب السالب، وتتخذ الجماهير موقعها فى القاعدة تقدم فروض الطاعة و الولاء. وخطورتها وهى

توطد جذورها فى الأرض، أن تلغى جوهر الوحدانية وتصبح هى الأصل والدين البديل الجدير بالاحترام والتقديس.

"وكبرياء الحكام ترمز إلى ضرب من الوثنية السياسية له طقوس ومراسيم تتقنها الأشياع، ويتلقفها الرعاع على أنها بعض من نظام الحياة الخالد مع السموات والأرض". (المرجع السابق - ص٣٦).

ويحلل شيخنا كنه التغير الذى يطرأ ويصيب التركيب البشرى فى حالة قيام الاستبداد، والتسمم الذى يفرزه وازدياد الطاغية شراسة والمواطن ضعفا، والبلاء الذى يصب على الجماهير، فيفسدها ويفكك تماسكها وتتآكل إرادتها ومقاومتها وسط الهول المترصد. فتضعضع قواها من جانب بينما تتنمر العناصر الوضيعة من جانب آخر وهى تجد فى المناخ الملوث فرصتها الكبرى.

يكتب محمد الغزالى مفسرا:

"وحيث يسود الحكم المطلق تنتقص الإنسانية من أطرافها، بل من صميمها.

"وذلك أن الله قد خلق البشر أحادا صحيحة وجعل لكل واحد منهم مدى معينا يمتد فيه طولا وعرضا، فإذا عن لأحدهم أن يتطاول وينتفخ ويتزيد، فعلى حساب الآخرين حتما.

"ومن هنا نجد من حوله أنصاف بشر أو أرباع بشر .. أصبحوا كسوراً لا رجالاً سواء، وما نقص من تمام إنسانيتهم أضيف زوراً إلى الكبير المغرور، فأصبح به فرعوناً مالكاً بعدما كان فرداً كغيره من عباد الله". (المرجع السابق - ص٣٦).

وأول ما يهيئ جبروت الحاكم ويشيعه في الأرض .. تكريس النفاق وجعله دعامة أساسية فى عالمه. فهو الجو الذى تترعرع فيه أكاذيبه محافظاً على مكاسبه الجائرة، ويوسع من دائرة نفوذه والإحاطة أكثر بمن يتشككون فى صدقه، وقد أصبحوا قلة وسط محيط الأفاقين المتسلقين، ويضيق الحصار عليهم. كما أن خطورة استشراء النفاق أنه يوهم الجميع - حكاماً ومحكومين - أن الأمر استتب تماماً لنظام القهر وضمن الحكم إلى الأبد، ومن ناحية أخرى لا يرجى أية فائدة من معارضته والتصدى له. وما أكثر ما يتناول محمد الغزالى المنافقين ..

"كما ينبت الشرك فى أحضان الوثنية ينبت الرياء فى ظلال الكبر، وحيث يوجد السادة المستكبرون يوجد الاتباع المتملقون والأشياع المرادون.

"وجو الحكم المطلق أحفل الأجواء بجماهير العبيد الراضخين للهون عن طواعية أو كراهية، وفى الحرب التى شنها القرآن الكريم على هذه المجتمعات المظلمة ترى الهجوم يتتابع على مبدأ "السيادة والتبعية" وعلى ما يلحق

هذا الجو إلغاء للعقول والضمائر". ("الإسلام والاستبداد السياسي" - ص٣٨).

إن الطاغية يجد في ضعاف النفوس مبتغاه، فهم بتكوينهم الوضيع وانغماسهم في الشر و تساقطهم على الشهوات وتكالبهم على المادة وبغضهم للمبادئ الرفيعة، أنسب العناصر للخدمة في بلاط المستبد. ولذا فهو قبل أن يبحث عنهم يسارعون بتقديم أنفسهم تحت أقدامه .. على أتم استعداد للقيام بكل ما يطلب وما لا يطلب ما دام في صالح نظامه الفاسد، ولضرب أعدائه الشرفاء الذين يرفضون ظلمه ويقاومون جرائمه.

"وطبيعة المستضعفين أن يسارعوا إلى مرضاة رؤسائهم، وإجابة رغائبهم ولو داسوا في ذلك مقدسات الأديان والأخلاق.

"والحاكم المستبد يبارك هذه الطبيعة الدنسة ويغدق عليها، ولو راجعنا الصحائف السود لتاريخ الاستبداد السياسي في الأرض لوجدنا مراءاة الحكام وقد وطأت أكناف المنكر، وأقامت للأكاذيب سوقاً رائجة، وقلبت الحقائق وصنعت الدواعي". (المرجع السابق - ص٣٩).

وعملية الاستبداد لا تستوعب لوناً واحداً من النفاق واتجاها واحدا، بل لونين منه في الاتجاهين. فبجانب النفاق التقليدي الذي يؤله به ضعاف النفوس الطغاة، فهناك آخر ينهض به المستبد نفسه إزاء أتباعه الأوفياء. فيمد الجسور

هو الآخر بينه وبينهم ليعطيهم المزيد من الثقة ويعبر لهم ضمناً عن شكره لهم وتقديره لسقوطهم الذى فاق سوء غيرهم. فالسقوط والضعة والصغار عوامل مشتركة تجمع بين الجانبين.

والسمة الثالثة فى طبيعة الحكم المطلق وخصائص الطاغية عند محمد الغزالى بعد كبرياء المستبد واستشراء الرياء، هو التبذير والإغداق على الأتباع. فالمستبد لا يفرق أبدا بين ماله الخاص والمال العام، فهو يحافظ على الأول ويضعه فى حبة عينه ويستثمره - فى الخارج - ويضاعفه بقدرة الشيطان عشرات المرات .. بينما يغترف من الثانى اغترافاً لا على ملذاته فحسب، بل على أعمدة حكمه الغاشم من المنحرفين والمتسلقين والفاسدين، ويبقى الفتات من المال العام للصالح العام. وهذا بالطبع على العكس تماماً مما يدعو إليه الإسلام أو حتى النظام الديمقراطى الذى يعرف له حرمته فلا ينفق إلا فى وجوهه المشروعة وخدمة الأمة.

والظاهرة المثيرة للدهشة أن الطغاة جميعاً يسرفون فى إنفاق المال العام بهذا الشكل الآثم بإسراف شديد مبالغ فيه. فأغلبهم إن لم يكن كلهم فقير المنبت وضيع الأصل شهوانى الطباع، ما تكاد تسنح له الفرصة المستحيلة ويعتلى الحكم ويصبح الديكتاتور حتى يصيبه الفجور فى شتى المجالات، ويسرف إسرافاً كأنه يريد أن يعوض سنين القحط التى ألمت بحياته قبلاً وهو مغمور. وهكذا تتبع الظاهرة

الأولى ظاهرة ثانية وهى .. تحول الدولة بفضل نهب المستبد وإسرافه من دولة غنية إلى فقيرة تتسول القروض من الدول الأجنبية وتقع تحت سيطرتها.

"من خصائص الحكم المطلق الصرف الشديد على شخص الفرد الحاكم وعلى كل من يمت إليه بسبب أو يواليه بنصر، فترى شهوات الغى - فى البطون والفروج - مشبعة، ومضلات الهوى مسيطرة على المشاعر والنهى، وعبء هذه النزوات يقع على عاتق الخزانة العامة وحدها، فإن الاستبداد السياسى لا يبالى من أين يأخذ المال ولا أين يضعه.

"وقد نكب المسلمون - من قديم - بنفر من القطاع، وقعت فى أيديهم غنيمة الحكم فتقاسموها نهمين، ولم يعرفوا من المناصب التى سقطت فى أيديهم إلا أنها منابع ثروة للشباب الجامح والنزق والإفراط، أما مصالح الأمة فلا وزن لها". (المرجع السابق - ص٤٤).

إن ظلم المستبد هو الذى يقيم الهرم المقلوب .. حاكم شديد الثراء يعيش فى القصور الباذخة والترف البالغ وشعب شديد الفقر يعيش فى عوز دائم ويقطن فى المدافن. ومبعث هذا كله أن الطاغية يستشعر فى نفسه لجبروته أنه ظل الله على الأرض، وأنه غير مدين لأحد باعتلائه الحكم. فسواء قفز عليه بانقلاب عسكرى أو مؤامرة سياسية، فساعده هو أو سلاحه هو الذى فعل، وليس مسئولا أمام الشعب عن أفعاله، فهو فوق الجميع حر تماما.

"إن الحاكم المطلق يتشهى ما يشاء فلا يتقطع شيء دون أمانيه الحرام، والحلال عنده ما حل في اليد، أما الدين وتعاليمه ففكاهة النهار وسمر الليل.

"الحكم المطلق لا يعترف بهذه المعاني جميعا (التي تطبقها دول العالم الديمقراطية)، فلا الحاكم يرى نفسه منتدبا من الشعب، ولا هو يرى المال الذي يصل إليه أجرا لعمله - إن كان له عمل - ومن ثم فليست هناك إطلاقا حدود يقف لديها في النفقة، إلا فراغ شهواته، وشهوات آله، وهي لا تفرغ حتى الممات". ("الإسلام والاستبداد السياسي" - ص٤٦).

في الدول المستعبدة خاصة التي قهرها الطغيان طويلا، فأفسد العقول ولوث القلوب وأمات الضمائر والإرادة وفرغ الألفاظ من معانيها، وفي غياب الوعي الديني المغيب للعقل بفضل الدعاة الذين خانوا رسالتهم ابتغاء وجه الشيطان، لا يتم العبث بالأحاديث النبوية فحسب بل يلوون مفاهيم الكتاب لتبارك بغي الحكام، ويسير رجال الدين في ركابهم مباركين الخطوات الآثمة. وهكذا تصبح الكلمات الإلهية في سورة ("النساء": ٥٩) مثلا: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" دعوة صريحة إلى الامتثال الأحمق لكل ما يشير به ولي الأمر، والاستسلام التام لحكم الطغاة بلا قيد ولا شرط. وهي ظاهرة لا زلنا نشاهدها في كثير من البلدان الإسلامية تمرح بلا خجل ونحن في العقد الثالث من القرن الخامس عشر الهجري، بغض النظر عن

تقدم العالم وشيوع الديمقراطية وحقوق الإنسان فيه!

يقول محمد الغزالى:

"فقوانين السمع والطاعة التى سنها الإسلام، بل التى وضعتها نظم أخرى وطبقتها بصرامة، لم يقصد بها إلا حفظ المصلحة العليا للجماعة، فكأنما أملت بها غريزة البقاء وضرورة الحياة.

ولا مجال ألبتة لجعلها متنفس هوى جامح أو شهوة عارضة.

وعندما شرع قانون السمع والطاعة لم يفترض فى الأطراف التى تمثله إلا قيادة راشدة تنطق بالحكمة وتصدع بالحق و تأمر بالخير، ثم جنود يلبون النداء ويمنعون العوائق ويتممون الخطة.

وبذلك تنتظم دورة القانون فى الأمة كما تنتظم دورة الدم فى البدن فتستقيم الحياة وتستقر الأوضاع.

أما الطاعة العمياء لا لشىء إلا لأن القائد أمر، وأمره واجب الإنفاذ، فذلك منكر كبير وجهالة فاحشة لا يقرها شرع ولا عقل". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٥٩).

الفارق شاسع بين مبادئ الإسلام وسلوك أتباعه، ويصل كثيراً فى اختلافه أو تناقضه إلى درجة أن يشكك المرء فى اعتناق هؤلاء الأتباع أصلاً لعقيدة التوحيد. والعلة الأولى

التى ساعدت على ذلك فى رأى محمد الغزالى ابتعاد المسلمين عن دينهم، هى الاستبداد الذى يملأ الأرض جورا وفسادا، ويفزع فزعا شديدا حتى من نصوص قرآن لا يعمل بها وجمدت فى ظل الحكم الجائر الذى يعكر مزاجه التلويح براية الإسلام. فى مصر ألغى الطاغية جمال عبد الناصر يوما مادة من الدستور الشمولى الذى وضعه ولم يعمل به - تقرر أن دين الدولة هو الإسلام! ولم يكن أنور السادات بأقل بغضا وهو يعلن شعاره المعروف "لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين"!

يكتب محمد الغزالى: "إن تعاليم الإسلام سارت فى اتجاه وأعمال المسلمين سارت فى اتجاه آخر، ووزر ذلك يقع على راس الاستبداد السياسى وما ينتشر فى ظلاله الداكنة من جهالة وغباوة وفوضى". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص١٣٣).

●

أحد المقاييس الدقيقة التى تعكس طبيعة الدولة واتجاهها الديمقراطى أو الاستبدادى، هو أسلوب العمل السياسى. فى الأولى يشكل هذا العمل فى حياة المواطن سلسلة طويلة من الجهاد والتضحية .. مسيرة تبدأ منذ الشباب وربما الصبا يناضل فيها فى سبيل المبدأ، سواء كان يتفق مع هوى الحكومة أو ضدها. معرضا نفسه لكل المحن حتى فقدان الحرية والسجن - لا تعرف المعتقلات والتعذيب

داخلـها - ومـن ثـم تتعـرف الجمـاهير علـى كفاحـه الوطنـى الـذى يتيح لـه فـى النهايـة أن يختـاره الشعب رجلـه فـى الحكـم.

أمـا فـى النظـم الاسـتبدادية فـلأن العمـل السياسـى ممنـوع أصـلاً، أو هـو فـى أحسـن الأحـوال مجـرد واجهـة براقـة لا أسـاس لـها، فـلا غرابـة أن تحـدث المهزلـة ويصبـح العمـل السياسـى بـالتعيين! كمـا حـدث فـى مصـر بعـد الانقـلاب العسـكرى فـى ٢٣ يوليـة ١٩٥٢ فـى تشـكيل الاتحـاد الاشـتراكى ومـا قبلـه ومـا بعـده. وبذلـك لا يملـك السياسـى خلفيـة سياسـية ولا وطنيـة، وإنمـا هـو رجـل الحكومـة فـى كـل العـهود. وعندمـا يختـار فـى منصب قيـادى لا يعرفـه أحـد، لأنـه لا مـاضى كفاحيـا لـه فـى سـبيل الوطـن أو المبـدأ. ويتسـاءل الشـعب عنـه فـلا يظفـر بطـائل.

"أمـا عندنـا فالحكـام يظـهرون فجـأة "كالنبـات الشـيطانى" لا تعـرف كيـف ظـهر ولا مـن تعـهده؟

"وتنـام الشـعوب ليلـها، وتصحـو نـهارها، وهـى ترمـق حكامـها كمـا يرمـق المحـزون القـدر الغـالب، أو كمـا يحمـل المفجـوع المصيبـة الفادحـة.

"وقلمـا تـألفت حكومـة ينظـر إليـها الشـعب كمـا ينظـر الإنسـان إلـى المـرآة فيجـد فيـها صورتـه، حتـى أصبـح الشـذوذ قـاعدة، وحتـى أصبـح العامـة يسـتغربون العدالـة ويـألفون المظـالم". (المرجـع السـابق - ص٦٠).

مـن المفجـع فـى البـلاد الإسـلامية التـى رانـت طويـلاً تحـت

ضغوط الاستبداد، وسامها حكامها الطغاة الخسف والعدوان والتهموا حقوقها وحرياتها .. أن المواطن فيها لا يعرف غالباً وبالضبط وظيفة الحاكم! .. ويحتاج إلى تفكير طويل أو قصير ليجيب لو سألته، كأن لا وظيفة للحاكم! وإذا ألححت عليه التمس أبسط الحاجات كأنها أقرب إلى المستحيلات، مثل تحسين الرغيف ليخلو من الأتربة والشوائب! ولا غرابة فى ذلك .. فقد امتهنت آدميته طوال قرون، ولم يعد حاكمه يدينه بمسئوليات والتزامات تجاهه، وألغيت تماماً واجبات هذا الحاكم وبقى قهره للأمة واستغلاله لها .. ليعيش هو وأذنابه فى ثراء فاحش وترف بالغ، بينما يتمرغ الشعب فى الطين. وما أبعد ذلك عن وظيفة الحاكم.

ولكن ما هى وظيفة الحاكم المسلم، وهل تختلف عن أى حاكم آخر خارج الأرض الإسلامية؟ نعم. فالإسلام دين ودولة ودنيا وآخرة، بينما الحكام الآخرون يقيمون الدنيا وحدها ويعطون ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما جاء فى الإنجيل. ولذا فوظيفة حاكمنا: "حراسة الإيمان فى القلوب وحراسة الفضائل فى المجتمع وحراسة المصالح العامة فى حياة الأمة. فإذا فرط فى أداء هذه الواجبات فقد قصر فى أعمال وظيفته، ووجب تنبيهه وإرشاده، أما إذا هدم الإيمان بالإلحاد، وأضاع العدالة بالجور، وأهمل المصالح باللهو، فقد خرج عن طبيعة وظيفته ووجب إسقاطه". ("الإسلام والاستبداد السياسى" - ص٣٤، ١٦٠).

(٥)

الشورى

كيف تكون غير ملزمة ؟!

"إن خدمة الإسلام فى هذا العصر عمل صعب معقد يحتاج إلى تجرد تام وفقه رحب.

فأمام ركام من المواريث الثقافية والاجتماعية لابد من جراحات جريئة لبتر البدع والأوهام والمراسم التى تغلغلت فى حياتنا الخاصة والعامة وأفسدت نظرتنا للدين والدنيا.

وأمام ركام من التقاليد التى رمتنا بها الحضارة الغالبة لابد من بصر دقيق بما ينفع وما يضر دون تشاؤم قابض أو ترحيب كامل.

ثـم إننـى محتـاج إلـى الاسـتفادة مـن نشـاط العقـل البشـرى فـى كـل قـارة وفـى كـل حضـارة إذا كـان هـذا النشـاط يدعـم قيمـاً مقـررة عنـدى.."

محمد الغزالى

"الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٨٩

لأن الشـورى عملـة غـير متداولـة فـى الأرض الإسـلامية، فـهى فـى حكـم المجهولـة عنـد الأكثريـة، لا يعرفـون لـها معنـى دقيقـاً يفهمونـه ويطمئنـون إليـه، كمـا ينظـر إليـها الرسـميون وأشـياعهم بحـذر وقـرف .. ويزيـد النـاس لـها تشـككاً أن مجـالس الشـورى المقامـة فـى بعـض بلادنـا مجـرد واجهـة لامعـة لمـا تخفـى مـن خـواء، وتعـادى الحريـات والديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان وتمكـر بجوهـر العقيـدة. يكتـب الشـيخ محمـد الغزالـى:

"والشـورى مفـهوم غـامض عنـد بعـض المتحدثيـن الإسـلاميين، ومفـهوم مضـاد لحقيقتـها عنـد بعـض آخـر. وهـذه الميوعـة فـى مفـهوم الشـورى الإسـلامية لا تزيـد المسـلمين إلا خبـالاً وفوضـى .. وسـببها قلـة الفقـهاء أو انعدامـهم فـى ميـدان الدعـوة، وازدحـام هـذا الميـدان بـذوى المعلومـات الكاسـدة أو التجـارب القليلـة أو الحمـاس الأجـوف".

ولكن مـا هـى أفكـار الشـيخ محمـد الغزالـى عـن الشـورى؟

• إن الشورى لا علاقة لها بالعقائد والعبادات والحلال والحرام، فهي لا تنشئ طاعة ولا تحل حراماً، إنها كالاجتهاد لا مكان لها مع النص.

• إن من هواة الكلام في الإسلام جماعة رفضت أن تكون الأمة مصدر السلطات. لماذا؟ لأن الحاكمية لله لا للشعب! وظاهر أن ذلك لعب بالألفاظ، أو جهل بمعنى التشريع، أو خدمة للاستبداد السياسي.

• عندما نتحدث عن الشورى فإنما نعني جميع الشئون الدنيوية والحضارة العادية، ثم جميع الوسائل التي تتم بها الواجبات الدينية، والأهداف الشرعية.

وعندما ترى الأمة أنه لا تفرض ضريبة إلا بإذنها ولا ينفق قرش إلا بإشرافها، ولا تقر مصلحة مرسلة إلا برضاها ولا تعلن حرب إلا بموافقتها .. الخ فذلك حقها بداهة.

إن ترك ذلك لتقدير فرد عبقري أو يدعي العبقرية - وأكثر الحكام من أولئك الأدعياء - هو ضرب من الانتحار!

• ونظام الانتخاب كنظام الامتحان أجدر المقاييس بالإيثار والإبقاء وإن كان كلاهما يحيف.

ويعرف شيخنا الشورى بقوله: "وطبيعة الشورى أن تكون في أمور تتفاوت العقول في إدراكها ووزن ما يرتبط بها من نفع أو ضرر، وما يتمخض عنها من نتائج دقيقة أو جليلة". ("الإسلام والاستبداد السياسي" - ص٥٨).

إن فزع الطغاة من الشورى الحقيقية الملزمة، أنها تهدد سلطانهم ومصالحهم وتوقفهم عند حدهم وتفضح تكوينهم الاستبدادي وتعلمهم الأدب .. فلا فرعنة ولا قهر لأنهم ليسوا كما يظنون فوق الناس جميعاً ومن طينة أخرى غير طينة البشر.

"من ميزات الشورى أنها ترد الحاكم إلى حجمه الطبيعي كلما حاول الانتفاخ والتطاول، والجماعات البشرية السوية، فيها رجال كثيرون يوصفون بأنهم قمم، أما البيئة المنكوبة بالاستبداد فصياح كثير وديك واحد، إن ساغ التعبير!". ("الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٥٣).

والشورى ليست مجرد قواعد ومبادئ دستورية، يمكن أن تنهض وحدها بلا اعتماد على أجواء صالحة تدعمها وتعمق وجودها وتقيها من السقوط، بل هي قبل كل شيء مرتبطة بسمو الخلق و تكريس المثل الرفيعة، وإلا أصبحت كائناً مصطنعاً فارغاً يفسد أكثر مما يصلح كما هو واقع في أرضنا الإسلامية. لقد فشلت محاولات كثيرة بسبب أنها لم تكن جادة أو صادقة، بل استهدفت منذ البداية الخداع والضحك على الذقون، والادعاء أننا لسنا مستبدين بل ديمقراطيون ونرعى الله في الجماهير ونحسن حكمهم.

"والشورى مبدأ إسلامي عظيم، لكن وسائل تحقيق الشورى وضبط أجهزتها لم يتقرر لدينا، ويظهر أن هذا

مقصود لاختلاف البيئات والمستويات الحضارية.

"وليس المهم أى طراز نستمسك به بل المهم أن نعرف الضمانات والأساليب التى تجعل الشورى حقيقة مرعية، فيختفى الفرد المستبد، وتموت الوثنيات السياسية، ويترجح الرأى الصحيح دون عوائق. ويتقدم الرجل الكفء دون أحقاد.

"هل يمكن ذلك فى غيبة العقائد والأخلاق؟ هذا مستحيل. لقد نقل الشرق الإسلامى صورة الديمقراطيات الغربية فى مرحلة هابطة من تاريخه، صرعته فيها مواريث جاهلية، وخدعته تقاليد استعمارية سفيهة. فماذا حدث؟ تم تزوير الانتخابات على نحو مذهل، وشقت الوثنيات السياسية طريقها وسط هالة من تأييد شعبى مكذوب". (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ط١٢ - ص١٦٣).

الأمة مصدر السلطات .. لماذا تفزع هذه الفكرة وتكرب الطغاة وعبيدهم من مختلفي النوعيات ومنهم كثير من رجال الدين؟ لماذا يفعلون المستحيل لتكريس أن الشورى للحاكم لا للشعب؟ إن احتيال الاستبداد لا ينتهى أمام متغيرات العصر ليقفز فوق حقوق الجماهير، ليظل هو المهيمن وحده على مقدرات الأمور لا يناقشه فيها من يتكلم باسمهم.

"أما القول بأن الإسلام أقر الشورى فى الحكم، وأعفى الحاكم من نتائجها، وأن البناء السياسى للأمة الإسلامية

يقوم على هذا الأساس فذاك كلام باطل، وهو قد يقع على ألسنة لم تحسن دراسة الإسلام ولا تدبر تاريخه، ولا سير القافلة البشرية فى الشرق والغرب، ولا وظيفة الأمة الإسلامية فى العالم. ويا ويل للمسلمين إذا وقعت أزمتهم فى هذه الأيدى القاصرة". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٨٣).

ويعرض مفكرنا لتفكير بعضهم ..

"رأيت منتسبين إلى الدعوة الإسلامية يصورون الحكم الإسلامى المنشود تصويراً يثير الاشمئزاز كله .. قالوا: إن للحاكم أن يأخذ برأى الكثرة، أو رأى القلة، أو يجنح إلى رأى عنده وحده! أهذه هى الشورى التى قررها الإسلام؟ فما الاستبداد إذن؟!

"وماذا تنتظر ممن يتحدث عن الإسلام فيقول: أجمع السلف والخلف على أن الشورى لا تقيد الحاكم! لحساب من يقال هذا اللغو السخيف"؟ (المرجع السابق - ص١٦٣).

أهمية الشورى أنها تصحح الأوضاع وتطلق الحريات جميعاً، وهى تكل أمور الدولة إلى الشرفاء والأمناء من أبناء الأمة، من خلال انتخابات نزيهة لا تدخل فيها. وترعى مصالح الجماهير والفقراء قبل الأغنياء. والسلطة التى تجىء على إثرها متداولة لا تقتصر على قبيلة أو أسرة أو شخص محدد، بل هى متاحة لكل فرد صالح فى الشعب ما

دام يعتمد على جوهر الإسلام ويتخذ دستوره من الكتاب والسنة.

كثيرون يظنون أن الحاكم المستبد في الأرض العربية والإسلامية، لما يحيط به من عسكر مدجج بالسلاح أنه إنسان قوى شجاع، بينما هو ليس كذلك على الإطلاق، لا لأنه ولى الحكم على أسنة الرماح .. بل لأنه يعتمد على الكذب في خداع الأمة في الهين والخطير من شئونها. ولذا تصبح حياته وأعماله سلسلة متصلة من الأكاذيب، سواء ادعى أنه يلتمس لحكمه الأسلوب العلماني أو الإسلامي، لأن جوهره استبداد مطلق.

وإذا كنا في مصر في الخمسين سنة الأخيرة منذ يولية ١٩٥٢ على الأقل، نعرف الديكور الديمقراطي والدساتير الهشة ومجالس الأمة والشعب والشورى الصورية التي تضع نشاطها كله في خدمة الحاكم، فإن الشيخ محمد الغزالي يعرض لنا التجارب العربية في هذا الشأن، التي تتمسح بالإسلام في إقامة مجالس شوراها .. والإسلام برىء مما يدعون. يقول في "الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية":

"وضع بعضهم دستورا إسلاميا أعطى فيه رأس الدولة سلطات خرافية لا يعرفها شرق ولا غرب .. وعندما تدبرت هذا الكلام وجدت أن معايب ثلاثا تلتقى فيه:

الأول: سوء فهم لمعنى الشورى، وغباء مطلق في إنشاء

أجهزتها المشرفة على شئون الحكم.

الثاني: عمى عن الأحداث التي أصابت المسلمين في أثناء القرون الطوال، والتي نشأت عن استبداد الفرد .. وغياب مجالس الشورى.

الثالث: جهل بالأصول الإنسانية التي نهضت عليها الحضارة الحديثة، والرقابة الصارمة التي وضعت على تصرفات الحاكمين.

فإذا استقبل المسلمون القرن الخامس عشر وفهم عدد منهم لوظيفة الحكم لا يتجاوز هذا النطاق العقيم .. فكيف تسير الأمة، وأين تتجه؟؟

إن الكلام عن تكوين الدولة عندنا تعرض له أقوام على حظ كبير من الطفولة العقلية، أو على حظ من الزلفى يكسبون به الدنيا ويفقدون به الإيمان". (ص٨، ٩).

وخدم السلطان وعبيد الطغيان يحاولون بشتى الوسائل أن يشوهوا كل قيمة تعيد للشعب قواه وحقوقه، وتقلص من نفوذ الحكام المستبدين بحجج واهية وأفكار متهاوية وتشويه متعمد. وهكذا تصبح الديمقراطية لعنة والانتخاب بدعة، لأنهما قادمتان من وراء البحار من عند الكفار. أما كل ما ينغمسون فيه ويرتعون من مظاهر الحضارة الغربية وترفها، فأمر غائب دائما عن أذهانهم. إنهم ببلاهة وطيش يقفون عند الاسم المستحدث مسمرين، أما مضمونه والهدف منه فلا ذكر له!

وأخطر من العمالة للطاغية امتهان الشعب الذى خرجوا من طبقاته الكادحة متناسين أصولهم المتواضعة، وما كانوا يعانون فى طفولتهم وشبابهم هم وأسرهم من ظلم الحكام. إن بعض هؤلاء المشايخ لا يخجل أن يهين الطبقات الدنيا ويجعلها ناقصة الإنسانية لا تستحق أن يكون لها مزايا، ولا يمكن أن تتساوى مع النخبة مثلهم فى الحقوق. ويكون رد مفكرنا جاهزا: "ألم يكن هؤلاء الغوغاء هم سواد الجيوش المقاتلة مع هذا وذاك؟ قبلناهم مقاتلين ولم نقبلهم ناخبين؟!. وقد سمعت كثيرين يزرون على رأى العامة، ونظرت إلى ما يطلبون من عوض فلم أر شيئا.

"وأحتقر متحدثين عن الإسلام يستكينون فى ظل أحقر استبداد، فإذا حدثتهم عن عمود الشورى فى الإسلام قالوا: ذلك رأى الرعاع والأمر لأهل الحل والعقد لا للرعاع."!

فى عهود القهر وتقييد الحريات وتكميم الأفواه، يصبح من الطبيعى أن يكون أحد ضحاياها لوى عنق الأشياء، وفاء بنفاق الطاغية والسير فى ركابه .. فتعنى الشورى عدم الالتزام بها. وهو يوقفنا إلى المدى الذى وصل إليه العبث والهوان بمقدرات الشعب المحاصر. إن مشاركة الأمة وأولى الألباب فى مناقشة سياسة الدولة والاستفادة بأفكارهم وتجاربهم والاستئناس بآرائهم، ليست من قبيل اللهو واللغو، بل هى الاعتماد على ركائز المعرفة وخلاصة التجربة. كما أن أصحابها يمثلون أيضا حقوق الشعب فى أن يحكم نفسه بنفسه. ومن هنا فالشورى أو الديمقراطية ليست كما يظن

حكـام الشـرق الطغـاة مجـرد ديكـور متقـن الصنـع خـاوى الوفـاض لا يلـزم حاكمـا طاغيـا .. بـل هـى مشـاركة حقيقيـة فـى تـداول السـلطة وحكـم البلاد وصنـع القـرار ورفـض الاسـتبداد.

"وأخطـأ مـن المفسـرين مـن وهـم أن الشـورى غـير ملزمـة، فمـا جدواهـا إذن؟ ومـا غناؤهـا فـى تقويـم عـوج الفـرد إذا كـان مـن حقـه ألا يتقيـد بـها؟ وأيـن فـى حيـاة الرسـول وسـيرة خلفائـه مـا يـدل علـى أن الحـاكم خـرج علـى رأى مستشـاريه ومضـى فـى طريقـه وحـده؟ ("الإسـلام والاسـتبداد السياسـى" - ص٥٩).

(٦)

سقوط الدعاة والدعوة إلى التأخر

"إن جو الفقه والفتوى وتربية الأمة وتبصير أولى الأمر شأو يستبعد منه قصار الباع والهمة والفكر، ويستحيل أن يحيا فيه المتطاولون الذين يحسنون الهدم ولا يطيقون البناء، نقول ذلك لنلفت الأنظار إلى خاصة بارزة فى ثقافتنا القديمة هى أن عمل الفقهاء أكمل جهد المحدثين وضبطه وأحسن تنسيقه ويسر الإفادة منه .. ومن ثم قاد الفقه حضارتنا التشريعية فى أغلب العصور.

والتأمل فى الآثار الواردة يجعل وظيفة الفقهاء لا محيص عنها، ويجعل الاستقاء المباشر من السنة صعبا على العامة ومن فى منزلتهم من ذوى النظر القريب، ذلك أن هناك قضايا وردت فيها آثار متقابلة، وقضايا أخرى لا ينفرد بالبت فيها حديث فذ ..".

محمد الغزالى "هموم داعية" - ص١٨

(١)

وعصور القهر الإسلامى متشابهة حتى فى التفاصيل فهى تكاد تكون هى هى، وما أشبه الليلة بالبارحة. الدعاة الشرفاء الذين يتعاملون بصدق وأمانة مع الرسالة التى يحملون، وغير المتنازلين عن النصح لله ورسوله .. مبعدون مكروهون من السلطة التى تعرف خطر ما ينتهجون. فهى إما تسجنهم أو ترهبهم بما لا طاقة لهم به، فلا يملكون إلا العكوف فى منازلهم والقيام بأدنى الخدمات الدينية. وفى مقابل هؤلاء أضدادهم من المشايخ والدعاة، الذين خانوا الأمانة وتسارعوا إلى خدمة الطغيان الذى أغدق عليهم الأموال والمناصب وصدرهم لخداع الأمة عن دينها وحقوقها.

"إن أصحاب العقول الكبيرة والهمم البعيدة حاربهم الاستبداد السياسى، وفض مجامعهم، فضاقت الدائرة التى يعملون فيها، وتضاءل الأثر الذى يرتقب منهم.

"والمرء لا يسعه إلا الحزن لمصائر قادة الفكر الدينى الذين قتلوا أو أهينوا وحيل بنيهم وبين نفع الجماهير.

"ومع غياب هؤلاء انفسح المجال لعارضى الأحاديث الذين يخبطون فى السنة الشريفة خبط عشواء .. ولفقهاء الفروع الذين خدعوا العوام بسلعهم، وأوهموهم أنهم يشرحون لباب الدين وشعب الإيمان الكبرى، وهم فى

الحقيقة يذكرون تفاصيل ثانوية يكثر فيها الأخذ والرد، ولا تمس جوهر العقيدة أو الشريعة". ("هموم داعية" - ص٣٦-٣٧)

إن الجهل والخلط العقلى عند كثير من الدعاة وعدم قدرتهم على التمييز بين الحديث النبوى الصحيح والمعلول، مسئولة عن فساد رأيهم وجمود فكرهم الذى يضرب به الأمثال، مما يجعلهم دائما متخلفى المفاهيم بالنسبة إلى قيم السماء وتقدم العالم. ويكفى أن نذكر هنا استسلامهم الأبله وإبرازهم السمج والإنسان يصعد إلى المريخ، لحديث موضوع يذهب إلى أن الصلاة يقطعها الكلب الأسود والمرأة والحمار! وأن الكلب الأسود شيطان. رغم الأحاديث الصحيحة التى تثبت أن نبى الإسلام كان يصلى والسيدة عائشة - راقدة - تعترض بينه وبين القبلة. ولا يزال الدعاة يلوكون إلى اليوم هذا الهراء بلا خجل على المنابر بقحة زائدة، ونحن فى القرن الخامس عشر الهجرى.

"والأمر عندى أهون من أن تثور حوله معركة .. لكن الذى رفضته أن يتصدى أحد أولئك المبطلين لعلم الأحياء، ويهاجم مقرراته ليقول: إن الكلب الأسود شيطان وليس كلبا كبقية بنى جنسه! قلت: حديث رفض العمل به جمهور الفقهاء، ولم يروه البخارى وهو يعالج الموضوع ندخل به معركة ضد العلم باسم الإسلام والمسلمين!

"إن التعصب المستغرب لوجهة نظر فرعية لا يبلغ هذا

الشطط، ولكنه للأسف مسلك ملحوظ على عدد ممن يشتغلون بأحاديث الآحاد".

ويقول شيخنا فى موضع آخر:

"إن العقول الكليلة لا تعرف إلا القضايا التافهة، لها تهيج، وبها تنفعل، وعليها تصالح وتخاصم"! (المرجع السابق - ص٢٣).

إن أحد عيوب الدعاة الكبيرة أنهم لا يقرؤون، انتهت صلتهم بالكتاب - المدرسى - مع تخرجهم، فبضاعتهم اجترار لما درسوا وهو ضئيل مهوش .. لم يعلمهم ضرورة القراءة الجادة والاستزادة والفهم. ولذا لا تدهش أن يكونوا على هذه الشاكلة الجامدة الواقفة "محلك سر". فهم يعيشون على ظهر الأرض ويجهلون تماما كل ما يحدث فيها - لا نقصد من علم وثقافة وفكر ومذاهب، بل نعنى أقل القليل .. المتصل بدينهم. وهكذا تحدث الفواجع والمآسى التى تستهدف الإسلام وهم فى عالم آخر لا تهتز لهم شعرة، لأنهم أصلا لا يبالون فهى من وجهة نظرهم ليست قضيتهم أو همهم، لأن عملهم مجرد وظيفة تتصل بالمؤهل لا صلة حقيقية بقضية أو مضمون أو هدف، ولا يختلف أداؤهم فيها لو كانت غير ذلك.

لقد حدث يوما أن "تبنى" مليونير كاثوليكى ثلاثين ألف طفل مسلم فى الصومال وعمل على تنشئتهم على المسيحية، فلم ينفعل للخبر حاكم مسلم ولا شيخ أزهر ولا

مفتى فى أى بلد عربى أو إسلامي ولا أى شيخ معمم، ولا جمعيات دينية كبيرة وصغيرة تجعجع كثيرا ولا طحن. وما لبث الخبر بكل معطياته المؤلمة أن ضاع فى الزحام.

ويعلق الشيخ محمد الغزالى فى "هموم داعية":

"إن جزءا من المال العربى الضائع فى أندية القمار كان يمكن أن يحفظ مستقبل هؤلاء.

وما أكثر يتامانا الذين استولت عليهم مؤسسات التنصير من جراء هذا التفريط.

الغرابة ليست فى وقوع هذه الجرائم على فداحتها .. الغرابة في ذهول ناس من المتحدثين فى الإسلام عنها وعن المقدمات النفسية والفكرية التى أدت إليها .. إننى أرتاب فى عقل هؤلاء أو دينهم ..". (ص٩).

وإذا كان التأخر هو مسئولية الجميع، المواطن العادى والجاهل والمثقف، فهى بالدرجة الأولى واجب أولى الرأى وأصحاب الفكر والمصلحين والدعاة .. طليعة الأمة التى تقع على عاتقها قبل غيرها مهمة هداية الأمة وإصلاح شأنها. ولكن غاض الولاء والوفاء والقيام بالواجبات، واستنام الجميع إلى الانكفاء المتقوقع على الذات وبلادة الدعة وعدم بذل الجهد، وأهم من هذا كله عدم إغضاب المفسدين الذين هم بيدهم الأمر والنهى والمنح والمنع، وتجمد الفكر وسقطت هذه الطليعة فى مستنقع النفعية أو الجبن، مما دفع إلى المزيد من الجمود والضياع، وتم تفريغ الكلمات من

معناها ولم تعد تعني شيئا. وهكذا يتلى القرآن ليل نهار وتذاع الأحاديث النبوية، ويذكر عظماء الإسلام كشخصيات أسطورية ليست من لحم ودم، فلا تؤثر أدنى تأثير في الوجدان والعقل بعد أن احتضر كلاهما.

يكتب الشيخ محمد الغزالي في "هموم داعية":

"فلنتأمل في ذاتنا نحن المسلمين .. إننا نزيد على ألف مليون من البشر، ونسكن أرضا تمتد بين المحيطين الأطلسي والهادي، وتحتوي على معاقل الممرات العالمية، ونملك ثلث ثروات العالم السائلة والجامدة، وهذه إمكانات تجعل منا أمة طليعة لا أمة ذنبا.

"وقد كان سلفنا أقل عددا، وأفقر مالا، ويحيا على أرض قفرة معزولة عن الحضارات الإنسانية الكبرى، فكيف نجح وساد على حين أخفقنا وتخلفنا؟

"في اعتقادي أن الثقافات المسمومة التي نتناولها، والأحوال المعوجة التي ألفناها هي التي أزرت بنا.

"إن الإسلام يدرس بطريقة جنونية، وشياطين الإنس والجن يحرسون هذه الطريقة حتى تسلم لهم مكاسبهم الحرام وتبقى لهم زينة الحياة الدنيا". (ص٩).

والفراغ الحقيقي في أدمغة أغلب الدعاة، يقود إلى الإفلاس الذي لا يملكون إزاءه وهم قوم لا يتصفون بالشجاعة، إلا المبالغة في تغطيته وإخفائه. والسلاح الأول

الذى يلجأ إليه هذا الصنف الجهول من الدعاة، هو التصدى للتافه من الأمور والتعصب الأهوج لرأى أخرق والمماحكة حتى يصبح الجدل السمج هو الأساس، ليغطى على الأعماق الضحلة ويعطى صورة أخرى مناقضة يمكن أن تخدع البسطاء، فيظنونها علما وإيمانا وقدرة واستيعابا. إن الجدل الممجوج بضاعة السطحيين يلتمسون منه عونا لا يملكه.

يعقب الشيخ محمد الغزالى على حوار له مع شاب تتلمذ على هؤلاء الدعاة وتطبع بطابعهم، فيقول:

"إن هذا الشاب وأمثاله معذورون، والوزر يقع على من يوجههم، لأنه لا يفقه أزمات الحياة المعاصرة، ولا يرتفع إلى مستوى الأحداث، ولا يحس بآلام أمته، ولا يخطر بباله ما يبيت للأمة الإسلامية ودينها العظيم من مؤامرات.

"إننا نريد ثقافة تجمع ولا تفرق، وترحم المخطئ ولا تتربص به المهالك، وتقصد إلى الموضوع ولا تتهارش على الشكل.

"ولا أدرى لماذا لا نؤثر العمل الصامت المنتج بدل ذلك الجدل العقيم؟".

وطريقة عمل العقل الخائب أنه يسلك الطرق المعوجة، وكلما ازدادت التواء بعثت الراحة لمرتادها الذى يسدر فى الوهم، يستعيض به عن الواقع الذى لا مكان له فيه ما دام صاحبه بإمكانيات ضئيلة، وأهم ما يعتقده صحة نظرته وحده

التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

"إننا لا نستطيع - فرادى - أن نحقق شيئا طائلا، فالجماعة من شعائر الإسلام، والجماعة رحمة، والتفرقة عذاب.

"والمطلوب من الدعاة الراشدين أن يدركوا الأمة من الداخل، ويقفوا حركة التمزيق الفكرى والروحى الوافدة من الخارج". (المرجع السابق - ص١٥).

إن الحقيقة ليست كما يظن ضيقو الأفق أو سيئو الظن ذات وجه واحد لا تعدوه، بل هى متعددة الوجوه ينظر إليها من زوايا مختلفة. ولذا فهى ليست حكرا على أحد مهما بلغ شأنه. وقد أشار الإسلام إلى ذلك وجاء القول الكريم: "للمجتهد أجران إذا أصاب وأجر واحد إذا أخطأ".

يكتب الشيخ محمد الغزالى منددا بالظاهرة:

"إذا كان من يخالفنا فى الرأى مأجورا فلم نسبه ونحرجه ونضيق عليه الخناق؟

"المشكلة التى نطلب من أولى الألباب حلها هى معالجة نفر من الناس يرون الحق حكرا عليهم وحدهم، وينظرون إلى الآخرين نظرة انتقاص واستباحة!

"الواقع أن الأمراض النفسية عند هؤلاء المتعصبين للفرعيات تسيطر على مسالكهم وهم - باسم الدين - ينفسون عن دنايا خفية! وعندما يشتغل بالفتوى جزار فلن

تراه أبدا إلا باحثا عن ضحية"! ("هموم داعية" - ص١٣).

ومن الطبيعى والحال هكذا أن يكون جل اهتمامهم بسطوح الأشياء التى يقف جهدهم العقلى عندها، فلا طاقة لهم بأكثر من ذلك. وهكذا تتسم معالجتهم للأشياء والقضايا بالسطحية التى لا تقول شيئا هاما، وإنما كلمات ثرثارة تقليدية لا جديد فيها لا تناقش مشكلة ولا تضع حلا، وإنما ألفاظ محفوظة تردد فى الفاضى والملآن بغض النظر عن الحاجة إليها من عدمه. والمحصلة انصراف الجمهور عنها وعن أصحابها وضياع الوقت بددا، مما يضاعف الفراغ الروحى لدى الأمة.

"إن فقههم معدوم، وتعلقهم إنما هو بالقشور والسطحيات.

"إن الاكتراث البالغ بالشكل يتم عادة على حساب الموضوع، كما أن الاهتمام الشديد بالنوافل لا يكون إلا على حساب الأركان". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٢٨).

وبالرغم من أن هؤلاء الدعاة يعيشون مع الناس ليل نهار وليس فى أبراج عاجية ويقفون على كل همومهم وما يشغلهم، إلا أن هذه الهموم والمشاغل لا تخطر للدعاة أبدا على بال. إنما تحولت الدعوة لمجرد عمل حكومى روتينى فاقد الروح يؤدى بحماس مصطنع .. أشبه بواجب مدرسى .. فضيعوا الرسالة وحافظوا على الوظيفة. ويصبح الإبقاء

علـى هـذا الموقـف والاسـتمرار فيـه مـن طبـائع الأشـياء، التـى تدفـع الأمـة ثمنـها غاليـا فيمـا يتصـل بدينـها ودنياهـا، وتعـرض عليها التـأخر مـدى الحياة. وهـى التـى أراد لـها اللـه أن تكـون خـير أمـة أخرجـت للنـاس، فـأصبحت بفضـل الدعـاة والطغـاة على العكس تماما.

إن الاهتمـام بالشـكل وحـده والاقتصـار عليـه، يعكـس مـا عليـه العمـل والداخـل مـن فـراغ يلجـا إلـى إحداث أكبر قـدر مـن الضوضـاء حـول تافـه الموضوعـات خاصـة التـى تدغـدغ أهـواء الجهلـة ليخفـى عجـزه. وهـذه الجريمـة لا يقتصـر ضررهـا البـالغ علـى الأفـراد بـل يمتـد ليشـمل الجماعـات الكبـيرة. وليـس إثـارة الـنزاع بيـن السـنة والشـيعة، ومـا يحـدث فـى باكسـتان بيـن الطوائـف المسـلمة ليـس إلا مثـالا لـهذا التدهـور فـى حـال الأمـة. والاحتفـال المبـالغ فيـه بالخـارج يجعـل المظـهر فـى النهايـة هـو الوسـيلة والـهدف، وإحـدى وسـائل الخـداع التـى توهـم الفـرد قبـل الآخريـن، أنـه بلـغ القمـة وأصبـح النمـوذج الـذى يحتـذى. بينمـا هـو علـى العكـس علـى طـول الخـط، وأنـه يبعـد أكـثر وأكـثر عـن الديـن، وتظـل الأمـة علـى مـا نراهـا اليـوم .. ضعـف فكـر وخلـق وعقيـدة، لأن الاعتمـاد علـى المظـهر حـال بينـها وبيـن الطريـق المسـتقيم وهـو مـا يجـر الشـعب إلـى البوار كمـا هـو حـادث.

يقـول الشـيخ محمـد الغزالـى فـى "الفسـاد السياسـى فـى المجتمعـات العربيـة والإسـلامية":

"إن هذا الدوخان في دوامة الرسوم والمظاهر، أو في دائرة هيئات العبادة وأقدارها نشأ عنه أمران خطيران .. كلاهما يهوى بالأمم من حالق، ويذهب بريحها.

"الأول ضعف الخلق .. فقد ترى الرجل دقيقا في التزام المندوبات الخفيفة .. فإذا كان تاجرا احتكر السلع دون مبالاة، وإذا كان موظفا تبلدت مشاعره في قضاء مصالح الجمهور، وإذا كان رئيسا وجدته سيئ الملكة، قاسي القلب، مكشوف الهوى.

"وقد ترى العابد من هؤلاء يضع يديه على صدره وهو قائم للصلاة ثم يعيد وضعهما بعد الرفع من الركوع، ويثير زوبعة على ضرورة ذلك .. فإذا كلفته بعمل ترقى به الأمة اختفى من الساحة!

"وكم تفتقر أمتنا داخل البيوت، وأوساط الشوارع، وفي الدكاكين والدواوين، وفي الأسواق والمعاهد، وفي كل مكان، إلى الأخلاق الضابطة الصارمة كي تؤدي رسالتها الجليلة على نحو جدير بالاحترام .. ولكن الاكتراث بالمراسم غض من هذه الأخلاق.

"أما الأمر الثاني فهو العجز العجيب عن فقه الدنيا .. والاقتدار على تسخيرها لخدمة الدين .. إن الدين الحق تقوى تعمر القلوب، من العبادات لا يستغرق تعلمها زمانا". (ص٣٠).

أن جهل المسلمين بشئون دنياهم جهلا يضرب به

الأمثال، رغم صخبهم الفارغ فيها وتكالبهم على المادة .. جعلهم فى مؤخرة الشعوب. هذه القضية يركز عليها مفكرنا كثيرا، لاتصالها الوثيق بقيم العقيدة من ناحية، وتقدم وقوة الأمة من ناحية أخرى. وهى تبدو كأن لا شأن للمسلمين بها. وهى فى لبها أيضا أحد الإفرازات السامة للاهتمام بالمظهر على حساب المخبر. وهى كذلك نتيجة مباشرة لتعاليم الدعاة الجهلة، الذين يشجعون ويباركون عدم الاهتمام بالدنيا، كأنها ليست عالمهم الذى يتنفسون والتى رزقهم الله بها ليهنئوا فيها ويعملون الطيبات لتكتمل سعادتهم فى الآخرة. ومعنى آخر يثرثرون فيه كثيرا بحمق شديد وهو تحبيب الفقر، كأن الثراء جريمة يلعنها الله ورسوله .. متعامين تماما وربما جاهلين أن العشرة المبشرين بالجنة كلهم من الأغنياء! وهكذا يجرى امتصاص عافية الأمة الإسلامية ونشاطها وطموحها بحجة أن الغنى حرام! وأن الفقر بما يصحبه من عوز واستكانة واستسلام لكل القوى الظالمة المهيمنة من البغاة والدعاة .. هو حلال.

ولو كان الخطاب مستهدفا الحد من الترف والكماليات وامتهان الكرامة الإنسانية فى سبيل كثرة المال لفهم الأمر، ولكن أن يكون الخطاب موجها إلى جمهور يعيش أغلبه تحت خط الفقر، محاصر بكل صنوف الإذلال المادى والمعنوى، محروم أصحابه من حقوقهم جميعا، فهى اللوثة والانحراف عن الجادة.

"إن هناك علماء - هم فى حقيقتهم عوام - لا شغل لهم

إلا هذه الثرثرات والتقعرات، وقد أضاعوا أمتهم، وخلقوا أجيالا من بعدهم لا هى فى دنيا ولا هى فى دين". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٣١).

ويحدث هذا كله فى غياب تام عن النظر فى القرآن والاستهداء به فى هذا التخبط والاستسلام الذليل لبلادتنا التى تمنعنا من الاستجابة إلى ما يدعو الله إليه من نجاح على الأرض التى نعيش عليها.

"لماذا جهلنا أسرار الحياة .. وعمينا عن قوى الكون .. ولدينا كتاب لا نظير له فى لفت الأبصار إلى هذه وتلك؟"!

ترتبط أو تعتمد الدعوة إلى الله بالدعاة، وهنا تبرز المأساة الحقيقية عندنا. ففى العالم كله يكون أمثالهم هم الخلاصة .. فكراً وديناً وسلوكاً وروحانية، يدركون مدى المسئولية الملقاة على عاتقهم .. ولكن فى الأرض الإسلامية المشبعة بالطغيان والارتزاق والتسلق، فإن الأمر مختلف تماماً. مما يجعل أغلب الدعاة على النقيض تماماً .. لا يتم اختيارهم موضوعياً اعتماداً على الكفاءة العلمية الحقيقية والخلقية، بل يتدخل الفساد والرشوة والصلة بكبار رجال الدين. وتكون النتيجة غالباً أسوأ اختيار يسوق إلى أسوأ نتائج .. وينتهى العمل قبل أن يبدأ.

"نظرت بعيداً عن دار الإسلام، وراقبت زحام الفلسفات والملل التى يتنافس على امتلاك زمام العالم. فوجدت

الإعلاميين أو الدعاة يختارون من أوسع الناس فكرا، وأرقهم خلقا، وأكثرهم حيلة فى ملاقاة الخصوم، وتلقف الشبهات العارضة.

"حتى البوذية - وهى دين وثنى - رزقت رجالا على حظ خطير من الإيمان والحركة .. لقد طالعت صور الرهبان البوذيين الذين يحرقون أنفسهم فى (فيتنام) ليلفتوا الأنظار إلى ما يصيبهم من اضطهاد .. وعرتنى رجفة لجلادة الرجال والنساء الذين يفعلون ذلك.

"فلما رجعت بصرى إلى ميدان الدعوة فى أرض الإسلام غاص قلبى من الكآبة". (المرجع السابق - ص٢٣).

إذن فتخلف الدعاة بهذا الشكل ليس مسئوليتهم وحدهم، بل هى فى المقام الأول مسئولية من أعدوهم بهذا الشكل .. عدم دقة فى اختيار الطلاب لهذه النوعية من الدراسة، وضآلة استعداد فى الأصل، وضحالة مواد ومناهج، واهتمام بالكم لا بالكيف فى أعداد المتخرجين. وقبل هذا كله المدرس غير الصالح أصلا لهذه المهمة، ثم تكون المحصلة أن نمتهن الدعوة فى ظل مناخ غير جاد داخل المؤسسة الدينية فى استهداف قيم عقيدة التوحيد الخالصة الحقيقية غير المستأنسة والمرتجفة أمام السلطة، بجانب اعتماد حجة المنحرفين أن الأمة كلها متهاوية فلماذا نستثنى الدعاة منها! ونسى هؤلاء الفاسدون أن القضية هى الإسلام.

والصورة بهذا الشكل لا تكتمل إلا إذا أبرزنا ملمحا آخر

يشكله قلة أخرى من الدعاة على طرفى نقيض .. يؤمنون بربهم حق الإيمان، يطبقون قواعد ومبادئ الدين فى حياتهم قبل أن يطالبوا غيرهم به. هيئوا أنفسهم درسا وتحصيلا وتعميقا للقيام بالرسالة، يملكون من الفكر والثقافة والعلم ومتابعة ما يجرى فى العالم، ما يشكل رؤية شاملة لنبض الإنسان المسلم وقضاياه. ومع هذا كله وبسبب هذا كله .. يستبعدون عن العمل بل ويحاربون، فالعملة الرديئة تطرد فى ميدان الفساد العملة الجيدة.

ويذهب محمد الغزالى إلى أبعد من ذلك .. التآمر المخطط للإحاطة بالأمة من خلال دينها .. يقول فى "الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية":

"كأنما يختار الدعاة وفق مواصفات تعكر صفو الإسلام. وتطيح بحاضره ومستقبله .. وما أنكر أن هناك رجالا فى معادنهم نفاسة، وفى مسالكهم عقل ونبل .. بيد أن ندرتهم لا تحل أزمة الدعاة التى تشتد يوما بعد يوم.

"والغريب أن الجهود مبذولة لمطاردة الدعاة الصادقين، من العلماء الأصلاء، والفقهاء الحكماء .. للقضاء عليهم، وترك المجال للبوم والغربان من الأميين والجهلة والسطحيين يتصدون للدعوة ويتحدثون باسم الإسلام". (ص٢٣).

ويعزو مفكرنا ذلك لا إلى الفساد أو الاستبداد الداخلى فحسب، بل إلى المؤثرات الخارجية أو بمعنى أدق للقوى

العظمى فى العالم التى تسير الدول المتأخرة فى ركابها تأتمر بأمرها. فالاستقلال بالنسبة إلى الدول الضعيفة مهيضة الجناح غير الديمقراطية، لا يعنى حرية حقيقية وامتلاك اتخاذ القرار، فمادامت لا تملك مقومات الدولة الحقيقية ذات القوى المختلفة المعنوية والمادية، ولم تتخلص بعد من طغيان الحكم .. فلا فرق بين احتلال واستقلال. هكذا يشير داعيتنا بإصبع الاتهام إلى الدول الكبرى ..

"ووراء ذلك مخطط استعمارى مدروس بدهاء، تنفذه الحكومات المدنية بدقة، حتى لا يبقى للإسلام لسان صدق، وحتى تبقى العقول المختلة هى التى تحتكر الحديث عن هذا الدين المظلوم.

"ويوجد الآن شباب وشيوخ يعملون فى ميدان الدعوة، أبرز ما يمتازون به الجهل .. بالنسب التى تكون معالم الدين، وتضبط شعب الإيمان .."!

"قضايا صغيرة تتضخم فى رؤوسهم، وقضايا تستخفى، وحماس فى موضع البرود، وبرود فى موضع الحماس، وأحاديث ضعيفة أو منكرة تصحح، وصحيحة تضعف وترد". (المرجع السابق - ص٢٣-٢٤، ٢٤).

والداعية المتخلف طامة كبرى .. وهو بجموده وضآلة عقله وعدم فهمه لحاجات الأمة والمتغيرات التى طرأت ودقائق تنفسهم الحياتى، يتسبب فى بعد الناس عن الدين وتشككهم فيه، والبعض يظن أن مفاهيم هؤلاء الدعاة

المختلة والمنبتة بصحيح الدين وواقع الناس وحاجاتهم، تحتمى بالنطاق النظرى وحده .. مجرد فكر. ولكنهم يفزعون إذا عرفوا أنها تدخل مجال التطبيق العملى وتصبح سلوكا.

إن بصمات هؤلاء الدعاة فى واقع الناس شديد البشاعة إلى حد لا يصدق، ولولا أن شيخنا الذى عرف بالصدق والدقة والأمانة هو الذى ذكرها، لما اطمأن إليها الخاطر. استخدام الكولونيا مثلا فى رأيهم حرام، لأنها .. نجاسة! وأكثر من ذلك أن اليد التى بها كولونيا نجسة، وتحرم مصافحتها! ويجهلون أن الإمام مالك بن أنس "يرى ريق الكلب وعرقه طاهرين".

ويدور نقاش بين مفكرنا وطالب التحق بطب جامعة القاهرة، يريد أن يدخلها بالجلباب والقلنسوة! ويدهش شيخنا ويتساءل:

- لم هذا الشذوذ؟!

- لا أتشبه بالكفار فى ارتداء البدلة الفرنجية!

- التشبه الممنوع يكمن فى انحلال الشخصية، وإعلان التبعية النفسية والفكرية لغيرنا، وقد لبس الرسول - صلى الله عليه وسلم - جبة رومية كانت ضيقة الأكمام .. فلما أراد الوضوء أخرج ذراعيه أسفل!

- ...

"ولكن الطالب الأحمق أبى وترك الدراسة الجامعية"!!

وموقف آخر يتصل بتناول الطعام، وضرورة أن يتم ذلك على الأرض مباشرة وليس على الموائد. ويكون تناوله بالأصابع لا بأدوات المائدة، كما كان يفعل البدو زمان .. فهذه سنة! ويعقب الشيخ محمد الغزالى على ألوان هذا التخلف بقوله:

"إن فهم هؤلاء الناس للدين غريب، وإثارة هذه القضايا دون غيرها من أساسيات الإسلام مرض عقلى .. إنه ضرب من الخبال.

"إن المؤامرات تستحكم يوما بعد يوم لاغتيال الإسلام أو الإجهاز عليه جهرة، فكيف يشتغل قوم بهذه السنن فقط ثم يتساهلون فى الواجبات وعظائم الأمور؟!".

أكبر الأسباب لتدهور أحوال الأمة الإسلامية هو رفضها باستمرار استخدام عقلها والإغفال التام لكل ما جاء به القرآن، من آيات تحض على تنشيط الفكر والتأمل، مفضلين أن نريح أنفسنا من إجهاد الذهن - ونحن نتلو بلا وعى آي الذكر الحكيم أو نطالع مواقف الرسول العظيم - موكلين ذلك لو حزبنا أمر مهما بلغت ضآلته، لآخرين يقومون به عنا - نفس السبب فى استشراء الاستبداد السياسى - والجماهير لا تنهض بدورها ظنا أنه عمل غيرها - الحمد لله أن شططها لم يصل إلى أنها مسئولية ناس فى كوكب آخر. وهؤلاء الآخرون لا يقلون عنهم إغفالا، فهم - الحكام والدعاة - أيضا غير مهيئين له .. بعكس أسلافهم زمان

الذين كانوا بحق "علماء" دين لهم من التعمق.والاستيعاب والإحاطة ما يجعلهم بالفعل الهداة للدنيا والآخرة.

وتتفاقم العلة كأنها اللعنة بظهور أجيال جديدة من أدعياء العلم لا تقل جهلا .. ووقعت الأمة بين شقى الرحى.

"من ناس قيل فيهم: أنهم يطلبون العلم يوم السبت، ويدرسونه يوم الأحد، ويعملون أساتذة له يوم الاثنين. أما يوم الثلاثاء فيطاولون الأئمة الكبار ويقولون: نحن رجال وهم رجال!

"وهكذا بين عشية وضحاها يقع زمام المسلمين الثقافى بين أدعياء ينظر إليهم أولو الألباب باستنكار ودهشة.

"وإذا كان هؤلاء لم يرزقوا شيوخا يربونهم، أو أساتذة يثقفونهم فسوف تربيهم الأيام والليالى وما أحفلها بالعجائب"! ("السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ط١٢ - ص٧ - ٨).

والافتعال دائما كذب وفراغ ورياء تشى جميعا بضعف صاحبها وجبنه وسوء خلقه التى يداريها بقناع يخفى سوأتها. وأقبح ألوانه هو افتعال الحماس فى الدفاع عن الدين، خاصة أن الإسلام يقبح هذه الوسائل التى تدل على الضعة والفجاجة والاعوجاج. ومن الطبيعى أن تكون الثمار فاسدة، إن لم تضر فهى لا تنفع، لأنها لا تقدم شيئا حقيقيا. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك .. خطباء المساجد والسياسيين. وأقبح ما يستخدم الأحاديث الضعيفة التى

تلوى حقائق الحياة والعقيدة. وفى هذا يقول مفكرنا: "أخشى أن يكون سوق النصوص مقطوعة عن ملابساتها سببا فى ضياع الدين والدنيا معا". (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ط١٢ - ص٩٩).

والمفاهيم المضللة التى تعشش فى الأدمغة الفارغة هى أيضا وراء ظاهرة لا تقل خطرا، وهى تباعد المسلمين خاصة دعاتهم عن بعضهم البعض بسبب الاتجاه الفكرى المختلف والأقبح أن يحدث باسم الإسلام. ومن المضحك أن تفكك المسلمين يتخذ عند الدعاة شكلا هزليا لا يمكن أن نتصور وجوده، لولا أن أشار إليه الشيخ محمد الغزالى، الذى يقول ممهدا: إن قلة الفقه سوء كبير، لكن سوء النية سوء أكبر".

"هناك مسلم "سلفى" يموت ولا يضع يده فى يد مسلم "صوفى"، هل هذا يصلح للدفاع عن الأمة أو السير بتعاليم الإسلام فى الميدان الدولى؟

"إن أمتنا مصابة من الناحية الفكرية والخلقية بعلل شتى، وكل جماعة تؤخر علاج هذه العلل، وتجعله فى المرتبة التالية، فهى هازلة فى جهادها متهمة فى قصدها. ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٩١-٩٢).

ويقول محمد الغزالى أيضا:

"والصغار دائما يهتمون بالصغائر فإذا رأيت من يهتم اهتماما هائلا بقبض اليدين فى الصلاة .. أهو فوق السرة

أم أعلى الصدر .. ويستثير ذلك أعصابه أكثر مما يستثيره قتل عشرة آلاف مسلم فى (تشاد) فاعلم أنك أمام مسخ من الخلق لا يؤمن على دين الله ولا دنيا الناس .. وهذا النفر من المتدينين عبء على الأرض والسماء.

"والأمة التى تسلم زمامها إلى هذا الإنسان المخبول إنما تسلمه لجزار.

"ودين الله أشرف من أن يتحدث فيه هؤلاء الحمقى".

الجهل وتهميش العقل والتعتيم على الحقائق، أصلح البيئات لإفراخ القيم الهابطة التى تشجع على الفساد وتستغل لصالح الطغاة والسياسيين الملوثين ورجال الدين المنحازين إلى الشر. وبالنسبة إلى الصنف الأخير يصبح المعمم مركزا من مراكز القوى فى دولة الاستبداد، كشخص مستبد يخدم الطاغية الكبير بحماس. ولذا تنتفى من قلبه الرحمة والتعاطف وينسى أصله المتواضع وهو ينضم إلى قافلة السلطة، وتظهر غلظته الكامنة وشدته على الناس فيما لا مبرر له. كما يسوق من مظاهر الضغط على الأمة - مقلدا سيده ما يتطلب الطاعة العمياء - التى لا تناقش من الجمهور، والتى لا وجود لها فى الإسلام.

"إن كلمة (اغمض عينيك واتبعنى) لا يمكن أبدا أن يقرها دين يؤمر رسوله بهذا البيان الواضح: "قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين".

"فلنخدم الإسلام بقوة، ولنخدمه بنظام.

"أما إشباع نزوات الاستعلاء في هذا، وكبوات الاستخذاء في ذاك، بالكبر والهوان هناك، فأبعد ساحة عنه، ساحة يهتف فيها باسم الله ويفرض فيها العمل للإسلام". (المرجع السابق - ص٧٧-٧٨).

إن السمع والطاعة بالزور والبهتان في مجال الدين، يصل بالمسلم الجاهل إلى حد الوثنية وهو لا يدري. والقصص المفزعة في هذا المجال كثيرة ولنقصرها على الحاضر وليس الماضي القريب أو البعيد، وبعض رجال الدين يوافقون على أن يقبل اتباعهم أقدامهم تبركا كشيء "مقدس". أو ما شاهده شيخنا يوما في السودان من تقبيل الناس للعربة التي يستقلها أحد المشايخ تبركا.

وفي هذا الجو الموبوء يصل الأمر برجال الدين أن يوحوا إلى الناس أو يوهموهم، أنهم وحدهم المتحدثون باسم الله ورسوله، وليس لآخرين أن ينافسوهم أو يردوا عليهم أو يهاجموهم، لأن ذلك خروج على العقيدة.

يقول الشيخ محمد الغزالي:

"ومن حقي أن أغضب، ففي الفكر الديني المتأخر آفة تزري به، ويجب أن يبرأ منها على عجل، وإلا تعرض لغضب الناس ورب الناس.

"إنه لا حرج أبدا من اختلاف وجهات النظر، لكن لا

يجوز لصاحب رأى منا أن يحسب نفسه المتحدث الرسمى باسم الله ورسوله، وأن من عداه خارجون على الإسلام بعيدون عن الحق".

وأصحاب النفوس البريئة والقلوب الطيبة، هم أول من ينخدعون فى دعاة هذا الزمان، ظنا أنهم لا يزالون كما كانوا صوت الحق والصدق والإيمان، وأنهم يعملون بما أنزل الله قبل أن يدعونا إليه. وأنهم دائما مع الخير ضد الشر وأول المدافعين عن الظلم لأنه لا يرضى الله، وهو عبد الله التقى النقى. هذه الصورة المثلى لرجل الدين لم يعد لها وجود منذ وقت طويل - لا يزال الكثيرون من حسنى النية فى الأمة الإسلامية يحسنون الظن بها ويعتقدون باستمرارها ويجلون رجال الدين لهذا السبب، ويقعون ضحايا الغفلة بعد أن تحول الدعاة إلى أبواق للحكم الاستبدادى وأدوات للظالمين.

يقول الشيخ محمد الغزالى فى "هموم داعية":

"والثقة - خصوصا فى أهل الدين - تغرس حسن الظن بما يأتون ويذرون، ويجعل المرء يتلقى توجيههم بالقبول الحسن، فهو ينزل عنده مطمئنا إلى أنه يطيع فى المعروف.

"ونحن لا نلوم إنسانا على نقاوة صدره وليونة طبعه، ولكن المؤمن لا يأذن لأحد أن يستغل هذه الصفات النبيلة فيه ليجعل منه شخصا طائش القياد ضرير العين والقلب". (ص٦٠).

(٢)

"فـى القـارات الخمـس تعطـى الشـعوب الحـق فـى أن تسـتبقى الحـاكم الـذى تحـب، وتسـتبعد الحـاكم الـذى تكـره، فمـا الـذى يجعـل الأمـة الإسـلامية تشـذ عـن هـذه القـاعدة فـى أغلـب أقطارهـا؟

وارتقـت أجـهزة الشـورى ارتقـاء عظيمـا، وتطـورت محاسـبة الحـاكم تطـورا جذريـا، فكيـف تبقـى لحـاكم فـى بلادنـا عصمـة؟ وكيـف يبقـى فـوق المسـاءلة؟

وظفـر الفـرد فـى أرجـاء الدنيـا بضمانـات لصـون دمـه ومالـه وعرضـه، ومثولـه أمـام قضـاء عـادل حصيـن إذا بـدر منـه خطـأ، فلمـاذا يحـرم الفرد عندنا مما توفر لغيره مـن خلـق اللـه؟

وعجبـت لمتحدثيـن فـى الإسـلام يسـكتون عـن هـذه القضايـا ويسـتمرئون الـثرثرة فـى قضايـا أخـرى لا تمـس الحـاضر ولا المسـتقبل، وإنمـا تشـغل الفـراغ وتقتـل الوقـت وحسـب.

كـل شـىء يمـر بأذهانـهم إلا قضايـا الحريـة الفكريـة والسياسـية وحقـوق الأفـراد والشـعوب"

محمد الغزالى "هموم داعية" - ص٤٦

ومنذ بداية حياته وقبل أن يتخرج من معهده الديني، ظهر اتجاه محمد الغزالي واضحا في الكفر بالطواغيت والأصنام والفاسدين من الحكام والدعاة وهو يراهم أهم الأسباب التي أدت إلى نكبة المسلمين. خاصة وهو في استقرائه للتاريخ الإسلامي يكتشف مدى الإفساد الذي وصلوا إليه، وعبثهم بمقدرات الأمة وبالذات في أشد ساعات محنتها وكربها، وهم غير مبالين بشيء إلا بمصالحهم الخاصة وشهواتهم ونزواتهم الرخيصة. وتثار في ذهنه علامات استفهام ضخمة تشكل العلة والعلاج.

"في عملي بميدان الدعوة الإسلامية اكترثت لهذه الأسئلة، ورفضت تجاوزها، وقلت: لابد من إكراه الكبار والصغار على الاهتمام بها، فإن فساد نفر من الحكام جر على ديننا وأمتنا بلايا غليظة.

"إن الخونة الذين مهدوا لسقوط إنطاكية والقدس وغيرها نسلوا في عصرنا هذا من يمهد لضياع عواصم الإسلام كلها، والسكوت كفر!! ("هموم داعية" - ص٤٥).

لقد انحصرت الدنيا عند فريق كبير من الدعاة في البدهيات التي تشمل العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج وكذلك المسائل الصغيرة الفردية التي لا تهم إلا عددا محدودا من جمهور الأمة. أما تنفس الشعوب الإسلامية وقضاياها الحيوية وهمومهم ومعاناتهم وقهرهم وتعرضهم لظلم الحكام، فهي ليست بذات بال وخارجة عن نطاق

الاهتمام. وإذا تساءلت عن موقفهم منها أجابوا كما فعل أحدهم يوما مع الشيخ محمد الغزالى .. أنها سياسة وعمله هو الفقه. ولم يدرك المسكين أن هذه "السياسة" هى منتهى الفقه الذى تقع مسئوليته عليه قبل غيره. وإن الحياة كلها خاصة قضاياها الكبرى المتصلة بحرية الإنسان وحقوقه وكرامته هى فقه. ولكن الجهل والبلادة وخدمة الطغاة هى عوائق الفهم.

"السقوط الخلقى أفة بعض رجال الدين، ولكنى أظن ذلك سببا ثانيا لفساد الحكم فى العالم الإسلامى، إن السبب الأول هو خلل التفكير الفقهى عند الجم الغفير من المتكلمين فى الفقه. شغلوا الجماهير بالخلافات الصغيرة حتى يمضى الفجار فى طريقهم دون عقبات". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص١٢٥).

ومشايخ السلطة الكبار والصغار فهموا منذ البداية اللعبة الدائرة المتصلة بالحكم، ووجدوا فى أنفسهم المواهب الملائمة والإمكانيات التى يوظفون وضعها فى خدمة سادتهم، فإذا هم يحسنون العمل بشكله المباشر وغير المباشر، فمع النفاق والمداهنة يلوون حقائق الدين بحيث يصبح ملائما لشد أزر الطغيان، أى على العكس تماما مما تحمل العقيدة. فإذا لم تؤمن الأمة بمنهجهم المريب، غلبها الشك فيما اعتقدت من قبل على يد هذا الصنف من المشايخ، خاصة وهم لا يجدون من الدعاة الشرفاء من يوجههم إلى الحق فيما يدور.

يقول مفكرنا: "وتدبرت الأوضاع السياسية في الأمة الإسلامية ثم شعرت بغصة، لأن الدين القائم في ظل هذه الأوضاع مطلوب منه أن يحسن القبيح ويقبح الحسن، وفي الدنيا منافقون لا يحصيهم عددا يرحبون بأداء هذه الوظيفة .. أهذا إسلام وأولئك حكام؟". (المرجع السابق - ص٨١).

ومن المفجع أن يشارك في تجميل صورة الطغاة آخر من يحق لهم ذلك وهم رجال الدين ولا تقول علماء الدين، الذين اختاروا الدنيا وأنكروا الآخرة وأصبحوا عبيدا للسلاطين.

والنتيجة في مناصرة الفقه للاستبداد بالسكوت عنه والتغاضي عن جرائمه والسلب في كتابه، التعتيم على المسلمين في أخطر قضاياهم، وتركهم في عماء يكاد يكون تاما، بدلا أن يدين فساد الطغيان وخروجه على الدين، ويبين طرق مقاومته والتخلص منه وعقاب أصحابه واتباعه والسائرين في ركابه، الذين أفسدوا على الأمة دنياها ودينها. جاء في "الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية" هذه الكلمات:

"إن الاستبداد السياسي استطاع على تراخي الأيام أن يحذف أبوابا مهمة من قسم "المعاملات" في فقهنا الضخم، أو أن يجعل حقائقها ضامرة مهزولة لأن الكلام فيها مرهوب النتائج.

"ومن ثم طال الحديث في أمور هينة وكثرت فيها

التفريعات والأخيلة البعيدة، على حين صمت الفقه فى الأمور الجلل.

"أما سياسة الحكم والمال فعلاقة الفقه بها مقطوعة، وحسب نفر من العلماء المعاصرين أن يرددوا فيها أقوالا سقيمة، قررها الجبناء الهاربون أو المفكرون القاصرون". (ص١٢٦).

العالم كله يدعو إلى التقدم ويعمل فى سبيله، إلا العرب والمسلمين. وليت الأمر وقف عند هذا الحد المهلك بل إن فريقا كبيرا منهم يدعون تبعا لعقد نقصهم وربما بلا وعى إلى العكس .. إلى التخلف .. أو فى أحسن الأحوال إلى الوقوف "محلك سر" .. مطمئنين وهم فى حالة أشبه بالغيبوبة، إلى أننا بجهلنا وتأخرنا وضعفنا المزرى .. أحسن شعوب الدنيا. ضعاف البصر لا يتمكنون من النظر إلى أبعد من أقدامهم. يتجاهلون هم وحكامهم مشاكل الجماهير الحيوية وقضايا الناس، ظنا أن ذلك يحلها تلقائيا من ناحية، ولا يعرضهم للفضيحة العالمية من جهة أخرى - والعكس صحيح تماما. هؤلاء المخدرون بمفاهيم ساقطة لا يسمعون الرعد الذى يزلزل الحجر. ومع ذلك يريدون أن يقودونا إلى الجنة فى الدنيا والآخرة! يدعون ذلك وهم يدورون حول أنفسهم ليل نهار، ينكفئون على ذواتهم الضحلة .. فلا علم ولا فكر ولا دين. ولا مشاركة فى هموم الشعب الاجتماعية والاقتصادية والحياتية بمختلف شئونها. فساء حال الأمة الإسلامية كلها، وأضاعت حياتها فى أمور هامشية،

وحوصرت الأمجاد القديمة فى اجترار الذكرى، فتعرضت لمزيد من السوء. ومن المخجل أن الكثيرين من رجال الدين والسياسيين والحكام المستبدين باركوا هذا التخلف الذى يبقى الأمة أكثر فى قبضتهم .. فضاعت الدنيا والدين معا .. ولا نزال نفعل سادرين.

"يستحيل أن تنجح رسالة كبرى يوم يكون حملتها فى هذا المستوى، إن امتلاك الحياة الدنيا عن قدرة وخبرة هو السبيل الأوحد لنصرة المبادئ والمذاهب.

"ثم وقع فى عصور التخلف الحضارى أن انسحب المسلمون انسحابا عاما شائنا من آفاق الحياة، وسيطرت عليهم أفكار غريبة .. فهموا أن الاستعلاء على مغريات الدنيا يعنى ترك الدنيا، وأن النجاح فى الامتحان يكون بالفرار منه لا بالدخول فيه واجتياز مشقاته.

"ونسيت تعاليم القرآن التى تقرر أن الأرض مخلوقة للناس، وأن التمكين فيها جزء من رسالة الحياة الأولى والأخرى، وحلت محل هذه التعاليم أحاديث تغرى بالفقر والتجرد!" .. ("السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ط١٢ - ص١٣٧).

والشعوب الجاهلة التى تعشش فى أدمغتها القيم البالية، أميل إلى المظهر لا المخبر .. فالأول لا يكلف مهما بلغ شيئا بالنسبة إلى قيمة المعنى التى هى جهد ومعاناة ومبدأ، وهو ما يتطلب الحفاظ على الشخصية القومية، بينما هو

عند الجماهير المتأخرة ملامح برانية وليست جوانية.

ومن رأى محمد الغزالي: "إذا أردنا الحفاظ على شخصيتنا فإن ذلك يتم بصدق اليقين وشرف السيرة وسعة المعرفة ودماثة الخلق. إن الجلباب العربي في عواصم عالمية أمسى شارة على الإسراف السفيه والانطلاق المجنون وراء شهوات مطاعة وأهواء جامحة. أذلك ما يخدم الإسلام وينشر دعوته؟". (المرجع السابق - ط١٢ - ص١٠٦).

ولأن محمد الغزالي أحد كبار مفكري الإسلام الذين فتحوا باب الاجتهاد في العصر الحديث، فهو يدرك جيدا المخاطر التي يتعرض لها هذا الجانب في حياة الأمة، إذا لم يحط بالضمانات العلمية التي تجعله بمنأى عن العبث والإفساد .. مما يجعل شيخنا يحرص على أن يتم ذلك وفق القواعد المرعية، ليؤدي دوره جيدا في حياتنا ويستعيد به الفكر الإسلامي فتوته وحيويته، ومن هنا فهو ضد ما يسميه "الاجتهاد الصبياني"، الذي هو مجرد استعراض عضلات ينبئ عن ضحالة فكر وسطحية اعتقاد. يقول محمد الغزالي: "أنا أكره التعصب المذهبي وأراه قصور فقه، وقد يكون سوء خلق. ولكن التقليد المذهبي أقل ضررا من الاجتهاد الصبياني في فهم الأدلة". ("السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ص١٤).

ويزيد من خطر هؤلاء في رأي شيخنا، ما أصاب الأزهر

من تدهور فى بنيته الأساسية، فلم يعد كما كان قادرا على التصدى للمتغيرات الجديدة التى طرأت على الساحة.

."وقد كان علماء الأزهر القدامى أقدر الناس على علاج هذه الفتن، فهم يدرسون الإسلام دراسة تستوعب فكر السلف والخلف والأئمة الأربعة، كما يدرسون ألوان التفسير والحديث وما تتضمن من أقوال وآراء.

"لكن الأزهر من ثلاثين عاما أو تزيد ينحدر من الناحية العلمية والتوجيهية، ولذلك خلا الطريق لكل ناعق، وشرع أنصاف وأعشار المتعلمين يتصدرون القافلة ويثيرون الفتن بدل إطفائها.

"وانتشر الفقه البدوى، والتصور الطفولي للعقائد والشرائع". (المرجع السابق - ص١٥).

محاولات أثيمة ناجحة ضد الإسلام ويقظة المسلمين تكاد لا تجد من يصدها ويوقف شلالها العارم، يقودها نفر جهول قليل الدين لا يعرف المسئولية. يريد بوعى أو بلا وعى السقوط أكثر لأمة التوحيد، وبدلا من أن يحفزوا هممها على التعرف على جوهر الإسلام الحقيقى الذى يجعل لحياتهم معنى وقيمة ونجاحا ماديا ومعنويا، وأن ما جاء فى تعاليم السماء هو لصلاح الدنيا والآخرة .. يفعل أصحابه العكس تماما، كأنهم مكلفون وهم مسلمون بإفسادهم. وهكذا يبعدون أكثر عن فهم الإسلام وتعاليمه ويعيشون أكثر على هامشة - كأنها مهمة مطلوبة - منشغلين بقضايا

جد خطيرة مثل عذاب القبر ونعيمه.

يحدث هذا فى الوقت الذى الأمة فيه مغلوبة على أمرها، يعيش أغلبها تحت خط الفقر .. تعانى من صعوبات فى مجالات الحياة جميعا، كأن الهدف إبعادهم عن التفكير فى مشاكلهم الملحة وإيجاد الحلول لها، والاقتصاص من المسئولين الذين أوصلوهم إلى هذا الدرك الأسفل من العيش. إن الإحاطة المريبة المستمرة بالعقل المسلم - عوام ومتعلمين - منبثة فى مجالات شتى وكلها متصلة بموضوعات خفيفة، والمحصلة فراغ فكرى دينى قاتل .. يسمح ليكون النظر إلى ماضينا متخلفا لا يفيد بل يضر، بعكس ما تفعل الأمم الأخرى الناهضة، التى تدرس أحداث الأمس لتأخذ منها الدروس المستفادة أو المدد، لنخطط لحاضر ومستقبل قويين ناهضين .. لا كما يفعل بعضنا لبث الفرقة والفتن وإجهاض الحلم .. كما فى إعادة مسببات الخلاف القديمة بين السنة والشيعة.

يقول الشيخ محمد الغزالى:

"لا أدرى سر الانفعال الذى يجعل العوام عندنا يعتبرون أنفسهم أبطالا وشركاء فى الروايات الدامية التي وقعت من أجيال سحيقة، فبدلا من أن يجتازوها، وقد استخلصوا منها العبرة، إذ هم يتصورون أنفسهم أصحاب حقوق فيها ثم يعيدون الخصومة جذعة، بعد أن يتشيع كل فريق إلى ناحية يهواها!

"لا أستطيع تسمية هذا إلا سفها، وعجيب أن أمتنا غرقت في هذا السفه دهرا .. وإلا فما شيعة وسنة؟

"إن القرآن واحد، والرسول واحد، فما هذا الانقسام؟ هب الأولين اختلف بعضهم على بعض فما معنى نقل الفرقة من الأسلاف إلى الأخلاف؟" ("الإسلام والاستبداد السياسي" - ص١٨١، ١٨١ - ١٨٢).

وفي موضع آخر يكتب مفكرنا في "هموم داعية": "أن جهلة المحدثين أرادوا إقامة مجتمع من الصعاليك ورووا آثارا تجعل عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا!

"وهذه بلاهة منكورة، فإن المال قوام الحياة وأساس الدولة، وكافل المؤسسات المدنية والعسكرية، وعبد الرحمن بن عوف هو بنص القرآن من السابقين الأولين، الذين حازوا الرضوان الأعلى، وبشروا قبل غيرهم بالجنة." (ص٣٧).

وخطورة هذا الاتجاه المريب إزاء شعوب عربية وإسلامية أدمنت التواكل واستراحت إلى التبلد ولم تتخذ إلى اليوم الوسيلة الوحيدة الحقيقية الفعالة التي تعتمد على الجد والجهد والعرق، إلى الارتقاء والرفعة والكرامة .. مما يجعل التشجيع الغبي على مزيد من الفقر .. انحطاطا بمختلف المقاييس يدفعها إلى الانحدار والتأخر أكثر وأكثر خلقيا واجتماعيا واقتصاديا. وفي معالجة شيخنا للقضية يقول أيضا:

"فإذا انضم إلى هذا أن العرب يحتقرون الحرف - تمشيا مع جاهليتهم الأولى ويفضلون عليها الفقر، عرفت أى مجتمع تصنعه هذه التعاليم.

"والغريب أن هذه الأحاديث كانت تروى وفى الأمة الإسلامية طبقات انتفخت من السحت.

"وبدلا من تقويم عوجها بالآيات والسنن الصحاح، انتشرت هذه المرويات، وانتشر مثلها فى ميادين كثيرة، مما بلبل المجتمع وكاد يفقده وعيه!". (المرجع السابق - ص٣٨).

وسائل كثيرة يلجأ إليها الاستبداد والفساد لاحتواء الإنسان المسلم فى ظلهما ومحاصرته، فلا يستطيع فكاكا من أسرهما. من هذه الوسائل التهوين من الإرادة البشرية وعدم التشجيع على استجماع القوى، وترك النفس عرضة للتيار كأن حرية المرء واستقلاله ليستا إلا محصلة قوة الإرادة، وهى التى تبنى على المستوى الفردى والجماعى الأمة وتقيم دعائمها الراسخة. هذه الإرادة التى تجعل من الإنسان المخلوق من طين بعمله ومبادئه وجهاده فى سبيل الله صنوا للملائكة المخلوقين من نور. ولهذا فالإرادة هى صانعة الحاضر والمستقبل الحر .. وهو أخوف ما يخافه الطاغية.

ويشارك المرتزقة من رجال الدين فى المهمة الآثمة، ويعرضون بضاعتهم الفاسدة لعلها تخدع الناس - وهى

بالفعل تخدع السذج والجهلة. يشجع على ذلك ما يحيط بالإنسان المسلم من حصار ومعاناة وفراغ روحى، فتترى أحاديث معلولة ما أنزل الله بها من سلطان تعارض صريح القرآن - الذى يبدو للأسف عند كثير من المسلمين الأميين كتابا مجهدا فى الفهم - كأن لا يعرف تفسيره إلا الثقاة المتخصصون. هذه الأحاديث تؤكد أن الإنسان مسير لا مخير .. أى لا فائدة من الكفاح .. وأن الإرادة مجرد شىء هين هامشى لا لزوم له، ولا قبل له بما هو مسيطر فى عالم الغيب .. "واللى مكتوب على الجبين لازم تشوفه العين"!!

ويكتب محمد الغزالى:

"كل ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس، وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهونون من الإرادة البشرية، ومن أثرها فى حاضر المرء ومستقبله، وكأنهم يقولون للناس: أنتم محكومون بعلم سابق لا فكاك منه، ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه فاجهدوا جهدكم فلن تخرجوا عن الخط المرسوم لكم مهما بذلتم!

"إن هذا الكلام الردىء ليس نضج قراءة واعية لكتاب ربنا، ولا اقتداء دقيقا بسنة نبينا، إنه تخليط قد جنينا منه المر.

"يقول الله لكل بشر على ظهر الأرض: "فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ

يصدعـون. مـن كفـر فعليـه كفـره ومـن عمـل صالحـا فلأنفسـهم يمـهدون". (الـروم: ٤٣، ٤٤). فـهل ربـط الجـزاء بـالعمل هنـا مـن قبيـل المـزاح أو الخديعـة؟". ("السـنة النبويـة بيـن أهـل الفقـه وأهـل الحديـث" - ط١٢ - ص١٧٦).

هـل يخـدع هـؤلاء الدعـاة المـهزوزون أنفسـهم أم يخدعـون النـاس؟ هـل يؤمنـون حقـا مـا يدعـون ويطلقـون مـن أفكـار، وهـم يشـعرون بالطمأنينـة والأمـان أنـهم يعـبرون صـادقين عـن ديـن اللـه ورسـوله أم أنـهم فـى قـرارة أنفسـهم يدركـون أن أكاذيبـهم لا يمكـن أن تتفـق مـع عقيـدة التوحيـد، وإنمـا هـو إرضـاء أصحـاب السـلطات واسـتغلال العامـة وادعـاء التشـدد الكـاذب؟ هـل صحيـح أنـهم يصدقـون مثـلا أن الصـورة والتصويـر حـرام؟ وأنـها - بنظافـة عقولـهم - لا تفـترق عـن الأصنـام، وأن الصـورة - بعـد أربعـة عشـر قرنـا مـن الـهجرة - يمكـن أن يعبدهـا لا الإنسـان البـوذى بـل الإنسـان المسـلم، كمـا لا يـزال السـيخ يعبـدون البقـرة؟ وهـل هـؤلاء المشـايخ يعيشـون بـالفعل دنيـا النـاس وحاجاتـهم وهمومـهم وأشـواقهم العليـا، ليجـدوا أن أدمغتـهم - تمـاثل أدمغـة دعاتـهم - علـى اسـتعداد لعبـادة الصـور؟

فـى أثنـاء أحـد الاجتماعـات الجـادة وشـيخنا يلقـى محـاضرة والقاعـة فـى صمـت تـام والآذان منصتـة والعقـول مرهفـة، إذ ينـهض داعيـة مـن إيـاهم صارخـا مزمجـرا لاعنـا يريـد أن يمنـع المصوريـن عـن التقـاط صورهـم محـاولا أن يحطـم آلاتـهم .. جـاحظ العينيـن مزبـدا صائحـا: هـذا حـرام! ثـم يوجـه خطابـه

إلى الشيخ محمد الغزالي:

- لماذا لا تمنع التصوير؟

- لأنى أراه مباحا.

- ألم يقل الرسول ﷺ: إن أشد الناس عذابا المصورون؟

- إنه يعنى صانعي التماثيل للعبادة .. ولا يتصور أن يكون هذا الصحافى أشد عذابا من الزناة والقتلة والمرابين والظلمة.

- الحديث عام فلماذا تخصصه؟

- خصصه الواقع الذى لا يمكن تجاهله، فالوثنيون كانوا يعبدون أصناما مجسمة ولم يعبدوا صورا شمسية، وعندما تكون الصورة الشمسية لصنم أو لصليب أو لمعنى دينى مرفوض فسنحرمها.

أما التقاط الصور فى شريط مسجل، أو التقاط الظل والملامح على ورقة لأغراض علمية أو اجتماعية فلا علاقة له بالوثنية، ولا يحكم عليه بتحريم، بل هو كما نبه مسلم فى صحيحه ليس إلا رقما فى ثوب!

يعكس التعصب دائما جهلا وغباء وكذبا ولويا للحقائق، ويتضاعف حجمه إذا اتصل بالعقيدة فيصبح تآمرا، وصاحبه يدعى شدة الحفاظ على الدين - لزوم خداع العامة - بينما هو يفعل العكس تماما، هذا البعض الذى رأسه وألف سيف ألا نستفيد فى أمور حياتنا بتجارب الغرب التى جعلته حرا، قويا غنيا متقدما، يحافظ بقدسية على حقوق الإنسان ..

بحجة أننا يجب أن نكتفى بما لدينا. ونظن لأول وهلة أن هذا الداعية هو أول من يحرص على ذلك بالنسبة عليه هو شخصيا، فيعيش حياته فى بيته وخارجه بسيطا متقشفا، يرتدى ويأكل ويشرب ويسكن ويتمتع بجده ولهوه فى نطاق ما يبيحه مستوى بلده البدائى من عيش ساذج متواضع مكتف به عن غيره. ولكننا نصدم أن هذا غير صحيح بالمرة، فهو من قمة رأسه إلى أخمص قدمه صناعة غربية مترفة، لا يجىء بسيرة الآخر وهو يتنفس فى كل دقائق يومه عالة على منتجات هذا الغرب! ولا يظهر الرفض إلا فى مجال الادعاء والضحك على الذقون.

بينما موقف محمد الغزالى شديد الوضوح فى هذه القضية، أن نستعين بتجارب الآخرين ما دامت تتفق مع جوهر عقيدتنا وتصلح أمرنا وتمكننا من الوقوف على أقدامنا لنبدأ مسيرة الإصلاح وتعويض ما فات. يدور حوار بين أحد هؤلاء الدعاة وبين مفكرنا يتناول القضية ..

- هذا ما نخافه منك. إنك تستورد الإصلاح من منابع بعيدة عن ديننا وتراثنا .. ونحن أغنياء عن مقترحاتك.

- تمنيت لو كانت غيرتك هذه فى موضعها. إننى معتز بدينى ولله الحمد. ولكن ليس من الاعتزاز بالدين أن أرفض الجهاد بالصواريخ والأقمار الصناعية لأنها بدعة!

ويعقب شيخنا:

"إن التفتح العقلى ضرورة ملحة لكل من يتحدث فى الفقه الإسلامى.

"إن النقل والاقتباس فى شئون الدنيا، وفى المصالح المرسلة، وفى الوسائل الحسنة ليس مباحا فقط، بل قد يرتفع الآن إلى مستوى الواجب".

ومن المريب حقا أن هذا اللون من التعصب المزعوم ضد الغرب لا يظهر أبدا فى مجالات الترف والكماليات وربما الفجور أيضا، بل يتعملق فى ميدان واحد هو الصالح العام وإصلاح المعوج والحال المائل، كأننا نوقن أن كل شىء تمام وليس فى الإمكان أبدع مما كان، ولا داعى لوجع الدماغ أصلا.

يقول الشيخ محمد الغزالى فى موضع آخر:

"إن الدين فى باب المعاملات مصلح لا منشئ كما يقول ابن القيم.

"وفى شتى المعاملات إذا تحققت المصلحة فثم شرع الله فما الذى يمنعنا نحن الذين جمدنا فقهنا، وأغلقنا باب الاجتهاد ألف عام - أن ننظر فى الوسائل التى اتخذها غيرنا لمنع الفساد السياسى أو منع الاعوجاج الاقتصادى .. ونقتبس منها ما لم يصادم نصا .. ولا يند عن قاعدة". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص١٢).

(٣)

"ولولا أن الله يتعهد الدنيا بقوم لهم فطر سليمة وأفكار مستقيمة يحاربون الظالمين، ويستثيرون المظلومين، ويؤلبون القريب والبعيد لإحقاق الحق وإبطال الباطل، لولا ذلك لمادت الأرض وهلك الحرث والنسل".

محمد الغزالى

"الإسلام والاستبداد السياسى" - ص١٥٦

إن الحاجة أصبحت ماسة أكثر من أى وقت مضى إلى إعادة النظر فى الدعاة وعدم السكوت على تجاوزاتهم ومحاسبة رؤسائهم حسابا عسيرا على إهمالهم فى متابعتهم. فالعداء السافر الذى نواجهه من خصومنا المتربصين بنا فى كل لحظة من ليل ونهار، يفرض علينا المواجهة حضاريا وفكريا وعلميا على الأقل. وأن نبادر فى التو واللحظة وليس فى الغد أو بعد الغد. إن المسافة بيننا وبين أعدائنا تتضاعف فى كل دقيقة ويتضاعف معها تأخرنا، وأغلبنا هائم بفضل دعاتنا فى غيبوبة ألعن من ضبابية المخدر، فلا نرى أو ندرك أو نعى أبعاد تقدم العالم وخطواتهم الهائلة فى ميادين العلم والثقافة والفكر والقضايا الإنسانية وحرية الإنسان والاقتصاد والاجتماع وغيرها.

"في عالم يبحث عن الحرية نصور الإسلام دين استبداد.
وفي عالم يحترم التجربة ويتبع البرهان، نصور الدين غيبيات مستوردة من عالم الجن، وتهاويل مبتوتة الصلة بعالم الشهادة.
وفي عالم تقارب فيه المتباعدون ليحققوا هدفاً مشتركاً، فلا بأس أن يتناسوا أمورا ذات بال. في هذا الوقت ترى ناساً من الدعاة يجترون أفكاراً بشرية باعدت بين المسلمين من ألف عام، ليشقوا بها الصف ويمزقوا بها الشمل.

"إن الثقافة الإسلامية المعروضة تحتاج إلى تنقية شاملة، وإن الدعاة العاملين في الميدان التقليدي يجب أن يغربلوا لنعدم السقط، وننفي الغلط". ("هموم داعية" - ص٥).

ومحمد الغزالي إزاء يأسه من حال الدعاة المائل الذي يصد النفس، لا يطالبهم أن يكونوا مثله مجاهدين مضحين في سبيل الله بالغالي والرخيص، أو حتى بمعارضة الطغاة والتصدي للظالمين، ولأنه يعرف تكالبهم على المادة وتهافتهم على المال، فهو يتخفف إلى آخر درجة من الإثقال عليهم - وهم غلابة - ومن هنا تجيء أبسط مسئولية .. "إنني لا أكلفهم باعتراض أوضاع فاسدة فهم دون ذلك .. وإنما أكلفهم ببيان الحقائق العلمية، وشرح المقررات الإسلامية وحسب"! (المرجع السابق - ص٨).

وفي ظل الأحوال المتدهورة للعقل العربي والمسلم، وفي مناخ يسوده القهر والظلم غالباً وضياع الحقوق .. تختلط المفاهيم وتشيع الأفكار المضللة بفعل فاعل من رجال

الدين، تمكن أكثر للجهل والطغيان لتجعل حصار الأمة الإسلامية كاملا، ليجيء استسلامه لقوى الشر نهائيا. تتضخم فيها ذوات أصحاب السلطة الكبار والصغار ومن يدخل فى فلكهم، ويصبح القائم بوظيفة هو الوظيفة أو المسيطر، بل أكثر من ذلك يصبح الحاكم هو الوطن والشيخ أو الداعية هو الإسلام. ويصدق العقل الواهن هذه الأكاذيب بل يرتاح إليها، لأنها تخفف عنه مصاعب الدنيا وتكفيه مؤونة التفكير بل والجهد فى سبيل مبدأ أو التضحية بالمال والنفس فى سبيل الله والناس.

يفند محمد الغزالى هذه الأكذوبة وما يدفع إليها ويترتب عليها، مدينا الفساد وأربابه بقوله فى "الإسلام والفساد السياسى":

"إننى أنصف الإسلام، وأدمغ الرجال المفرطين فى حقه وإن أنتموا إليه، وأريد أن يدرك العاملون فى مختلف الجماعات والهيئات الإسلامية أن خدمتهم لدينهم لن تتم ولن تخرج ولن تسير فى صراط مستقيم إلا إذا نضج فى أذهانهم الفهم السليم لحقوق الإنسان، واكتمل فى صفوفهم الدفاع العنيف عنها". (ص١٩).

إن دستور محمد الغزالى واضح إزاء هذه القضية .. يقول فى "هموم داعية":

"يجب أن نتعاون فى المتفق عليه، ونتسامح فى المختلف فيه، ونتساند صفا واحدا فى مواجهة الهجمة الجديدة على ديننا وأرضنا حتى نردها على أعقابها". (ص٤٠).

لماذا العداء للمرأة؟

"إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأياً مرجوحاً، ويتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهز الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمى".

محمد الغزالى

"السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ط١٢ - ص٤٩

لعل أدق المقاييس لتقدم الأمة هو وضع المرأة فيها وتمتعها بحقوقها غير منقوصة، فإن سلبت هذه الحقوق عكس ذلك تدهور الأمة، وهو ما عليه الشعوب الإسلامية فى الزمن الأخير. إن كل ما حدده الله لها تجوهل تماماً، بل على العكس فسر لغرض فى نفس يعقوب بغير معناه لنعود بها ثانية إلى الجاهلية .. كأن الإسلام لم يظهر والقرآن لم ينزل. وفى هذه الأثناء تمكنت المرأة فى العالم من الكفاح

فـى سـبيل حقوقـها ونجحـت، وازدادت علمـاً وثقافـة وقـوة، أتـاحت لـها وبعضـها فـى موقـع خصـوم الإسـلام أن تضـرب المسـلمين ضربـات موجعـة عـادت عليـهم بالهزيمـة فـى السـلم والحـرب بفضـل إيمانـها بمبادئـها ودينـها ووطنـها .. كمـا فعلـت الهنديـة أنديـرا غـاندى والإسـرائيلية جولـدا مـائير. وأذاقـت كمـا يقـول الشـيخ محمـد الغزالـى رجـال المسـلمين أصحـاب الشـوارب عـاراً لا يمحـى ..

"إن القضيـة ليسـت قصـة أنوثـة وذكـورة. إنـها قصـة أخـلاق ومواهـب نفيسـة.

"مـا دخـل الذكـورة والأنوثـة هنـا؟ امـرأة ذات ديـن خـير مـن ذى لحيـة كفـور"! ("السـنة النبويـة بيـن أهـل الفقـه وأهـل الحديـث" - ص٥٩).

إن أشـباه الرجـال فـى زمـن الانحطـاط الـذى يسـمح بكـل فسـاد تمسـحوا بـالدين ليسـقطوا عليـه مـا بأنفسـهم، فعمـدوا إلـى وضـع الأحـاديث الملفقـة التـى تكـذب صريـح القـرآن. ووسـط الجـهل الـذى تغلغـل حتـى النخـاع فأنسـى الممثليـن عقولـهم وأنفسـهم، صدقـوا أن الإسـلام جـاء ليـهضم الحقـوق .. حقـوق نصـف الأمـة ويردهـا إلـى نـوع آخـر مـن الـوأد، فيمتنـع عنـها التعليـم والكتابـة بـل والخـروج مـن المـنزل لزيـارة والدهـا المريض، بـل وعـدم الصـلاة فـى المسـجد .. وكـأن عكـس هـذا كله لـم يكن يتم فى عـهد محمـد عليـه الصـلاة والسـلام.

يقـول مفكرنـا: "وقـد أتـت علـى المسـلمين عصـور مـاتت

فيها السنة الصحيحة ولا تزال هذه المأساة باقية تتعصب لها بيئات لا تعرف إلا المرويات المتروكة والمنكرة". (المرجع السابق - ص٦٤).

من المفجع أن يعيش الكثير من المسلمين فى حالة انفصام شخصية .. دقائق حياتهم وتنفسهم اليومى وجدهم ولهوهم مع الحياة العصرية الغربية المتقدمة، يألفون معطياتها ويتهافتون على لذائذها باستسلام تام .. بينما ينكصون على أعقابهم فيما يتصل بعقيدتهم، ويختارون كل ما ليس فى جوهرها، كأنهم يعيشون فى العصر الحجرى بلا تفكير أو نقاش لما يتخذون .. ظناً أن التشدد مثلاً هو سمة الإسلام فى أركانه، جرياً وراء مجموعات ترفع راية التعصب الأجوف. والتشدد فى كل العصور تجارة رابحة توهم عند سطحيى الإسلام بعظيم الإيمان ومتانة الصلة بين العبد وربه. وله قيمته عند الجهال وسطحيى الدين الذين يظنون أن العقيدة مجرد عبادات آلية، ليست لها صلة بسلوكهم فى الحياة أو المواقف التى يتخذون .. كأنه تم الانفصال بين الدنيا والدين فى الإسلام.

إن تهالك البعض على الأحاديث الضعيفة أو المنحولة التى يتجاهلها العلماء الثقاة على مر العصور، أصبحت تجد عند هؤلاء الهامشيين احتفالاً كبيراً، كأن التشكيك فى جوهر الإسلام تكليف من لدن شيطان أثيم يعمل على إبعاد المسلمين عن دينهم الحقيقى، ويعرضهم لشكوك وبلبلة لا حاجة لهم بها. وهى للغرابة لا تتصل بقضاياهم الحيوية،

ولا تؤكد مثل العدل والحرية وتكافؤ الفرص، والتصدى للظالمين والمستبدين وسالبى حقوقهم، ولا للمتاجرين بالدين .. فهؤلاء جميعاً بعيداً عن المساءلة وفوق النقد، كأن حاجات الأمة الأساسية كلها قد قضيت، ولم يعد هناك مثار للاهتمام إلا القضايا الفرعية والهامشية أو التى تثير الشكوك، بعد أن انتهى المجتمع من إرساء قواعدها منذ وقت طويل .. كأنها ردة حضارية لا لما يعيشه المسلمون فى الوقت الحاضر بل ردة فى الإسلام.

وغير الجهل والادعاء والخداع فإن هناك باعثاً آخر يرجع إليه محمد الغزالى تشدد هذه الفئة فى أمور الدين، وهو سوداوية أمزجة أصحابها. فغلظة الطباع وضيق الأفق وتشاؤم النظر، تقصى الرؤية الموضوعية وتسد أبواب الأفق وتلغى فاعلية الأمل، فإذا الشدة المصطنعة هى الوسيلة. يقول مفكرنا: "الأصل فى الأشياء الإباحة، فلا تحريم إلا بنص قاطع، والواقع أن نفراً من سوداوى المزاج أولعوا بالتحريم ومنهجهم فى الحكم على الأشياء يخالف منهج نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام الذى ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه". ("السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" - ط١٢ - ص ٩٦ - ٩٧).

ويضرب شيخنا بعض الأمثلة على ما يخالط عقول بعض هؤلاء الإسلاميين الجدد، وكان محمد الغزالى فى الجزائر ويقف أحدهم صائحاً بلا خجل: "إن المرأة فى الإسلام

خلقت لكى تلد الرجال لا عمل لها إلا هذا!

"وهذه الصيحة تطلق والغزو الثقافى الدينى والشيوعى - أيام الاتحاد السوفييتى - يعد المرأة بالعلم والكرامة واستكمال الشخصية والمشاركة فى إصلاح الأرض وغزو الفضاء. قلت للإسلاميين وأنا كاسف البال: قفوا هذا المجون قبل أن ترتد الجزائر وتستولى عليها فرنسا مرة أخرى"! (المرجع السابق - ص٧٨).

ويضطر مفكرنا إلى التذكير بالبدهيات التى تجوهلت بالنسبة إلى الأحاديث النبوية .. خاصة المصنوعة:

"من حق المهتمين بالأحاديث الضعيفة أن يذكروها بعيداً عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية. فإن الدماء والأموال والأعراض أكبر من أن تتداول فيها شائعات علمية. وكذلك أصول التربية، وتقاليد المجتمع، والشعائر التى يشخص إليها الرأى العام، وتعد منارات على حقائق الإسلام وأهدافه فى الحياة.

"يمكن الاكتراث بالأحاديث الضعيفة فى قضايا هامشية أو حيث تكون زيادة تنبيه إلى ما قررته الأدلة المحترمة فى كتاب الله وسنة رسوله.

"وهذا هو منهج علمائنا من قديم، ولكن طوائف من العوام أو من ذوى الأغراض حادوا عن هذا المنهج فرأينا أشياء تهتاج لها جماهير ما كان السلف الأول يأبه لها. وتم ذلك على حساب حقائق الإسلام الكبرى فى مجال العقيدة

والشريعة، ومجال الإدارة والاقتصاد والسياسة بل أستطيع القول بأنه تم على حساب الأخلاق والتزكية التى بعث بها صاحب الرسالة العظمى". (المرجع السابق - ص٧٩).

إن التربية لم تعد فى بيوت إسلامية كثيرة هى الأساس، ففى انشغال الأب بالعمل الكثير لسد حاجة الأسرة المتزايدة، وفى انهماك الأم فى عمل البيت بجانب الوظيفة إذا وجدت، أسقطت التربية الإسلامية. كما أن مبادئ هذه التربية نفسها بالنسبة إلى الأجيال الجديدة من الآباء والأمهات قد اضمحلت وأصبحت شيئا بعيدا، بفضل الجهل وعدم الاهتمام واللامبالاة والبعد عن الدين. وهكذا يقضى الصغير منذ طفولته وقتا طويلا فى الشارع .. يلعب ويتعلم أسوأ الأشياء، والأم تتخلص من شقاوته وعبثه إما بتركه أمام التليفزيون أو الكمبيوتر. وفى غياب دور المدرسة اكتملت المأساة ويتضاعف الخطر أكثر بالنسبة إلى الفتاة.

يكتب محمد الغزالى فى "الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية":

"إن التربية الراشدة الناضجة هى الضمان الأول لكل نهضة، والبيت هو المدرسة الأولى لتلك التربية. وعندما تكون المرأة صفر العقل والقلب، لا ثقافة فى مدرسة، ولا عبادة فى مسجد .. فمن أين تحقق التربية المنشودة.

"إنه لا مجتمع يصلح عندما تكون المرأة حيوانا يحسن تقديم الأكل والمتعة وحسب". (ص١٥).

يظن الكثيرون وسط البلبلة الفكرية التى يعيش فيها المسلمون فى نصف القرن الأخير علّى الأقل، فى ظل الحكم الشمولى وهيمنة الضحالة وقيام الغوغائية المتشنجة، أن القول بسفور المرأة المسلمة رأى جديد يذهب إليه القلة فى العصر الحديث. وهذا غير صحيح بالمرة. فأئمة الفقه وعلماء المذاهب الأربعة وغيرهم، ذهبوا منذ وقت طويل إلى إباحة الإسلام للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها. ويذكر شيخنا من أسماء هؤلاء: أبو بكر الحصاص - حنفى - والقطبى - مالكي - والخازن - شافعى - وابن كثير - سلفى - وابن قدامة - حنبلى - وكذلك الطبرى.

باسم الفكر واختلاف الرأى حيناً والدفاع عن الشريعة حيناً آخر يتشنج التعصب إلى درجة التآمر والكذب على الله ورسوله، فى زمن ازداد فيه المسلم العادى جهلاً بعقيدته بفضل التعليم فارغ المحتوى والإعلام التافه وغياب المؤسسات الدينية الحقيقية، والفراغ الروحى القاتل الذى يحاصر الأجيال الجديدة. فإذا اليقظة الإسلامية تتقهقر بدل أن تتقدم، مما يساعد الخفافيش على استغلال الظلام السائد فى العربدة والتطاول على القيم. مما أفرز ظاهرة تهميش العقل إلى درجة إلغائه، والتى اتخذت أقبح صورها بالنسبة لعالم المرأة. فبينما كانت المرأة المسلمة فى عصر النبى سافرة الوجه فى مجالات الدنيا والدين، فى البيت وخارجه وفى الأسواق، وكذلك فى الصلاة والحج .. يتسلل دعاة الحجاب الجدد بالتخريب ونشر الأكاذيب ويكذبون هذه

الحقـائق.

لنســتمع إلـى الشــيخ محمـــد الغزالـى وهـــو يقــول: "قــرأت كتيباً فـى إحـدى دول الخليـج يقـول فيـه مؤلفـه إن الإسـلام حـرم الزنـا وإن كشـف الوجـه ذريعـة إليـه، فـهو حـرام لمـا ينشـأ عنـه مـن عصيـان! قلـت: إن الإسـلام أوجـب كشـف الوجـه فـى الحـج، وألفـه فـى الصلـوات كلـها، أفكـان بـهذا الكشـف فـى ركنيـن مـن أركانـــه يثـير الغرائــز ويمـــهد للجريمـــة؟ مـــا أضـــل هـــذا الاســتدلال! فـهل أنتـم أغـير علـى الديـن والشـرف مـن اللــه ورســوله؟"! ("السـنة النبويـة بيـن أهـل الفقـه وأهـل الحديـث" - ط١٢ - ص٤٤).

والفـارق الكبـير بيـن مـن يتصـدون للقضايـا الإسـلامية زمـان واليـوم، أن الأوليـن أخـذوا عدتـهم للمهمـة خير قيـام فـى كـل مـا يتصـل بـها، مـن درس وإحاطـة وفكـر مسـتنير واسـتهداف الحـق قبـل كـل شـىء، بينمـا الآخـرون ينقصـهم هـذا جميعـاً .. فـلا يملكـون إلا أن يخدعـوا أنفسـهم ويخدعـوا الآخريـن بتجـاوز الحـدود، كأنـها عصـارة الاجتـهاد، بينمـا هـو الإفـلاس بعينـه. يأمرنـا القـرآن بغـض البصـر إزاء المـرأة، فـهل يمكـن أن يكـون الغـض إزاء المحجبـة أو المنقبـة؟! بـالطبع لا. ولكنـه الفـهم المغلـوط والـهدف الفاسـد.

يقـول الشـيخ محمـد الغزالـى فـى "السـنة النبويـة بيـن أهـل الفقـه وأهـل الحديـث": "إذا كـانت الوجـوه مغطـاة فمـم يغـض المؤمنــون أبصـارهم؟ كمـا جـاء فــى الآيـة الشـريفة "قـل

للمؤمنين يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم" (النور: ٣٠) أيغضونها عن القفا والظهر؟ الغض يكون عند مطالعة الوجوه بداهة"! (ص٤٥).

لماذا تتسم الفئة المؤيدة لعورة وجه المرأة بالتشنج؟ وترفض إنسانية الإنسان متجاهلة فى هذا الشأن توجهات القرآن؟ لماذا يشى تفكيرها العام بالانغلاق والجمود؟ هل تريد أن يعود الزمن بالمسلمين القهقرى إلى أيام الرق المادى والمعنوى وهم جزر منعزلة جافة غليظة؟ إن المجتمعات المغلقة التى يعيش فيها هؤلاء الدعاة هى المسئولة عن تسميم منابع الحرية فى نفوسهم والتفكير فى عقولهم، وتجعلهم أسرى للرؤى الجنسية التى تحول المرأة إلى مجرد جنس لا عمل لها إلا إمتاع الذكر. وهو تفسير لنوعية من الناس تستكين إلى ثقافة منقرضة ومفاهيم متحفية لا يملك أصحابها أدنى قدر من الشجاعة يكشفون به ما يخفون من أراجيف.

وقد التفت مفكرنا إلى ما وراء تزمت هؤلاء من لذع سياط الجنس، التى تجعله مقياساً مفضلاً للخير والشر فى الدنيا! فيكتب: "إن ناساً غلبهم الهوى الجنسى هم الذين شرعوا هذه التقاليد بعدما تعسفوا فى شرح الآى بتفاسير مرفوضة، تفاسير لم يقل بها واحد من الأئمة الأربعة الذين انتشر فقههم فى طول البلاد وعرضها". ("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص١٤).

أفرز الكم الهائل من المتخرجين من المعاهد والكليات الدينية، وتحكم المناهج المبتورة والأساتذة غير الأكفاء غالباً، والطلبة الذين التحقوا بها على غير رغبة حقيقية إلا الحاجة إلى الشهادة والوظيفة .. كان من الطبيعى مع هذا كله أن يسوء المستوى ويهبط وتفرز نوعيات سطحية من الدعاة، تعين لسوء الحظ فى المكان المؤثر، ويأخذ الناس عنهم دينهم وهم على هذه الضحالة، مما يسمح لهم بحرية الخلط والإدعاء يضاعفها عقد الفاشلين والجهال، والمحصلة مفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان .. تعرض الجماهير للبلبلة والبعد أكثر عن الدين. وأنسب القضايا التى تتيح لهم التأثير المتصلة بمشاعر الأميين وأنصاف المتعلمين الذين يعيشون فى عصور المماليك والعثمانيين .. هى قضية المرأة.

يقول الشيخ محمد الغزالى فى "الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية":

"نفر من المتكلمين باسم الإسلام يرون المرأة فى الجامع أو الجامعة قذى فى أعينهم، ويضعون العوائق من عند أنفسهم - لا من عند الله - كيلا يكون للنساء وجود فى ميادين الأمر والنهى، والنصح للعامة والخاصة.

"وهم مهرة فى لىّ أعناق الأيات، وقلب الأحاديث النبوية رأساً على عقب، وتحريف الكلم عن مواضعه حتى يأخذ الناس دينهم من عقول بها مس". (ص١٧).

إن إفساد هؤلاء المشايخ يجد صداه الواسع فى المجتمع الإسلامى، لما هو فيه من فراغ روحى استمر طويلاً، خاصة أن عهود ظلم الحكام المتعاقبة، كانت تشجع القيم الفاسدة التى تجر الشعب معها إلى الوراء وتكرس المفاهيم البالية لتزداد الأمة تأخراً وبعيداً عن جوهر العقيدة، التى هى السلاح الباتر فى وجه أعدائها .. ولكنه أيضاً الصالح الخاص وخدمة السلطة ودغدغة مشاعر وأهواء الجهلة.

وخطورة هذا الوضع لا تقتصر على المسلمين داخل حدودهم، بل تتعداها إلى خارجها وهى تقدم للأجانب أقبح الصور للمسلمين التى لا تنحصر فى قلة بل تمتد إلى الكثرة. ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تصبح قضية إسلام لا مسلمين، وهكذا لا نكتفى بتشويه أنفسنا بل نتسبب فى تشويه ديننا.

والقصص كثيرة لتنطع مثل هؤلاء الدعاة وأثرهم المدمر فى المجتمع، واحدة منها أخبرت بها مفكرنا أستاذة متدينة بكلية طب جامعة القاهرة، عندما أوهم داعية من هذا الصنف المائل متخرجة من كلية الصيدلة، أن العمل صيدلانية حرام .. لأن المرأة ينبغى ألا تعمل خارج البيت. فما كان من الفتاة التى تخاف ربها إلا أنها انصاعت إلى فتواه، واشترت ماكينة خياطة فى المنزل لتعمل خياطة سيدات!

"هذه فتوى مخبول لا يعرف الإسلام، بل هو وأمثاله قرة عين لأعداء الإسلام .. فلا يحرم الإسلام على المرأة أن

تبيع وتشتري، وأن تتعامل مع الناس ما دامت مستترة في زيها الإسلامي متأدبة بآداب الإسلام، غير متبرجة بزينة .. تحفظ نفسها وعرضها من الذئاب".

من المفجع أن وقع الأحداث الدامية التي تحط على المسلمين لا توقظ عقولهم ولا تهز بلادتهم، وتمر بلا أدنى أثر كأنها لم تقع ولم تتسبب في الإضرار بهم، ويظلون سادرين في غيبوبتهم يلوكون أوهامهم ومفاهيمهم البالية في الحياة والمرأة كأن الدنيا توقفت مثلهم عن الحركة منذ مئات السنين. ولا شيء يكشف الحقائق مثل الموقف من المرأة، التي هي في مجتمعاتنا من سقط المتاع، بينما هي لو نشئت وربيت وتعلمت مثل صاحبتها في الخارج، لتغير تاريخ الأمة الإسلامية. إن النعرة الجاهلة التي تهب بشأن المرأة عندنا لم تفسد عليها حياتها فحسب، بل فعلت كذلك بالنسبة إلى الرجل والمجتمع كله أيضاً وقادته إلى الانحدار. فلم نتمكن يوماً في أن نجعل نساءنا ينافسن لا نساء الدول المتقدمة والعالم الأول بل المرأة في العالم الثالث الذي ننتمي إليه!

يقول محمد الغزالي في "الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية" وكله أسى:

"وعندي أنه أفضل أن تحكم الباكستان امرأة من نوع "أنديرا غاندي" عن أن تحكمها عساكر من طراز "يحيى خان" الذي ما كان يفيق من سكر.

"إن المــرأة التــى رأســت الــهند اســتغلت خيبــة الحكــام العســكريين للباكســتان واســتطاعت أن تلحــق هزيمــة فاحشــة "بــالفيلد مارشــال يحيــى" قصمــت ظــهر الدولــة الإســلامية الكبيرة وشطرتها نصفيـن.

"وقــد فعلـُت "جولــدا مــائير" بــالعرب مــا فعلــت زميلتــها الهنديـة.

"ولـو أن امـرأة حكمـت العـرب مـن هـذا الطـراز لكـان ذلـك أجـدى علـى العـرب مـن عسـكر وضعـوا علـى صدورهـم أعلـى الأوسمة، فلمـا جـد الجـد تحـول عمالقـة الاسـتعراض إلـى معـز وضـأن.

"إن امـرأة علـى رأس حكـم شـورى أفضـل مـن مسـتبد علـى رأس سـلطة مغتصبـة.

"وبديـهى أن ذلـك ليـس هـو النظـام الأمثـل". (ص٨٣).

فلسطين

"يجب أن نعلم وأن نعترف بأن العقيدة لا تهزمها إلا العقيدة، وأن التحلل الخلقى، والانهيار الاجتماعى، ليسا من وسائل النصر أبدا.

"إن انعطاف المسلمين الشديد إلى القرآن وتعاليمه وأحكامه، وترابطهم باسمه، ومصارحتهم العدو والصديق بهذه الحقيقة الواضحة هو وحده طريق التحول فى هذه الحرب بيننا وبين اليهود.".

محمد الغزالى

"فى موكب الدعوة" - ص٢٥٢

لا نظن أن مفكرا إسلاميا فى ساحتنا كلها، كتب بهذا الاهتمام البالغ الصادق منذ أكثر من نصف قرن وباستمرار عن قضية فلسطين و"الدولة التى تبنى نفسها فوق أنقاضنا" أى إسرائيل، كما فعل الشيخ محمد الغزالى. لقد

عالج هذا الموضوع المأساوى حتى قبل دخول الجيوش العربية أرض فلسطين وإنشاء الدولة التى كنا نطلق عليها المزعومة - فى عام ١٩٤٧. يكتب مفكرنا منذرا بالأخطار منبها بضرورة استجماع قوانا، منددا بتقاعس العرب والمسلمين .. مشجعا حركة المتطوعين. وعندما انتهت حرب ١٩٤٨ بالهزيمة، تابع بعزم شديد لا يكل، ما يقع على الأرض السليبة وسعى إسرائيل لإقامة دولة عصرية قوية من الصفر، ونجاحها فى ذلك وهى تعتمد على العلم والحرية والديمقراطية والجهد الخلاق.

وللشيخ محمد الغزالى رأى فيما كان يمكن أن تهيئه مأساة فلسطين وقيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ على الساحة الإسلامية كلها من تفجير اليقظة الإسلامية وبداية حياة جديدة قوية لهم، وهم يرون حجمهم الطبيعى فى الساحة العالمية والدول الكبرى تسارع إلى الاعتراف بالدولة اليهودية الجديدة بعد إعلان إنشائها بدقائق، سواء الرأسمالية منها كأمريكا وغيرها أو الشيوعية كالاتحاد السوفييتى. وكذلك ضعف المسلمين المزرى الداخلى وعدة دول عربية، لا تستطيع أن تفوز فى حرب صغيرة ضد شراذم يهودية كنا نسمى دولتهم "المزعومة".

ولكن تفوت المسلمين والعرب هذه الفرصة وهم يتشبثون بتهافتهم وملوكهم يحرصون على عروشهم، فعادوا بعد الهزيمة إلى استئناف حياتهم كأن لم يحدث شىء ذو بال، وكأن قيام دولة معادية فى وسطهم من طبائع الأشياء.

"لاحت فرصة ليقظة أساسها الإسلام لما أقبل اليهود باسم التوراة يمحون الوجود العربى الإسلامى فى فلسطين، ولكن الزعماء العرب استماتوا فى جعل قضية فلسطين جنسية لا إسلامية وبلغوا هدفهم.

"والقضية الآن من وجهة نظر اليهود دينية توراتية أما من وجهة نظر العرب فهى .. توفير الخبز والسلام والحرية لجماعات من المطرودين اللاجئين.

"وإذا ذكر أحد الإسلام كمم فمه وغلت يده وسمى رجعيا.

"أما إسرائيل فهم تقدميون شرفاء!".

("الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية" - ص٨٨)

بعد اندحار الجيوش العربية فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ظن كثير من العرب والمسلمين فى سذاجة منقطعة النظير، أن الصراع العربى الإسرائيلى آذن بنهاية. وأن اليهود اكتفوا بالمكاسب الهائلة التى حصلوا عليها وساعدتهم الدول الكبرى على نوالها خاصة أثناء الهدنة المشئومة. وكان هذا النظر عن قلة بصر وجهل بطبائع الأشياء وشئون السياسة. بينا أدرك كثيرون أن هذه مجرد بداية جديدة فى الصراع المشئوم، ومن الفريق الأخير كان الشيخ محمد الغزالى، الذى ظل ينبه طوال حياته إلى أخطار إسرائيل والإسرائيليين. يكتب فى مقال مبكر يرجع تاريخه

إلى أكثر من خمسين سنة:

"استطاع اليهود - بعد الجولة الأولى - في حرب فلسطين، أن يضعوا قدما على الأرض المقدسة، وهم الآن يبذلون الجهود المريرة ليضعوا القدم الأخرى، ثم يستأنفون - بعد تثبيت أقدامهم - مراحل العدوان على ما وراء فلسطين من أرض العروبة والإسلام.

"والظفر الذى ناله اليهود فى أول صدام معنا قد يغريهم باستعجال النتائج وكيل الضربات.

"وما عرف به اليهود من غدر وخسة، سيجعل عيونهم مفتحة لأحوالنا العامة وسيتربصون بنا الدوائر، فإذا سنحت فرصة للنيل منا فلن يضيعوها.

"ولهذا الوضع القلق دلالته الصارخة .. فلا شر اليهود بمأمون، ولا سكوتنا على العدوان بممكن. وعلينا أن نرسم خطط المستقبل وهذه الحقائق ماثلة أمامنا.

"إن قضية فلسطين لن تتحول إلى قضية لاجئين ومشردين، وإن شرف الإسلام أرفع من أن يعدو عليه إخوان القردة، ثم يرتدوا سالمين موفورين.

"وقد ترامت إلينا الأنباء بأن حشودا للأعداء تجمعت على حدودنا، وليس هذا بعجيب، وإن لم يصح اليوم فإننا نتوقعه غدا. وأحمق الناس من يؤخذ على غرة فى مثل هذا الصراع الدامى الطويل.

"فعلى مصر أن تأخذ أهبتها وأن تستيقظ لأداء واجبها.

"وعلينا نحن - حملة الإسلام وحماة دعوته - أن ننتبه إلى كل ما يدبره لنا خصوم بلادنا، وخصوم العروبة من مكايد ومؤامرات". ("فى موكب الدعوة" - ص٢٥٠).

ويذهب مفكرنا فى هذه الأثناء إلى غزة، ويصدم بما عليه المخيمات الفلسطينية البائسة وأهلها، وحاجة اللاجئين إلى الضروريات. ويعود إلى القاهرة مفعما بالحزن مشتعلا بالغضب. ويجد من واجبه أن ينبه إلى بشاعة ما يقاسيه الفلسطينيون والخطر القائم وضرورة قيام رأى عام يساند القضية على حقيقتها. ويلتمس من الصحف الكبرى العون. وتفشل مهمته! لماذا؟

"صحفنا؟ إنها تؤثر نشر صورة عارية على نشر غضبة محترقة لواعظ ذهب إلى "جنوب فلسطين" ثم عاد محنقا مما رأى!

"لقد اتصلت بكبريات الصحف لأحدثها عن منطقة "غزة" وعن مجرى الأمور فيها، فلما لمست فى حديثى روح المسلم الذى ينظر إلى الأمور على ضوء القرآن والسنة، انصرفت عنى فى لطف أو فى عنف! ولكنى جازم بأن هؤلاء الذين ينامون الآن فى ظلال الأوهام الوادعة، سيستيقظون قريبا على مس الحوادث الفاجعة". ("المرجع السابق - ص٢٥١).

وعندما يخفق القلم فى مهمته أو يحال بينه وبين أداء

واجبه، يفكر صاحبه فى وسيلة أخرى لعلها تكون أجدى، وهى الفعل. ولكن كيف؟ وماذا فى مكنة المسلم التقى أن يصنع؟ "فكرت أن أعترض مسير الناس فى أحد الميادين الكبرى ثم أصيح بأعلى صوتى: أنا النذير العريان. يا قوم: إن اليهود يبيتون للإسلام الويلات، وتوشك حشودهم المعدة، وجنودهم المدربة، أن تسيل بها الصحراء. ونحن غارون ذاهلون. ولكن ما جدوى صوت يضيع صداه بين أبواق السيارات المنطلقة، وضوضاء الجماهير الهائمة؟".

ويدرك الداعية الشاب - بحسبان ما كان - فى وقت مبكر أن أخطر من القوة العسكرية .. القوة الروحية. وأن إسرائيل باتحادها يمكن أن تغلب العرب بتفككهم. نعم استطاعت اليهودية أن تصهر الجنسيات المختلفة من الشرق والغرب فى دين واحد، بينما فشل العرب والمسلمون لقلة إيمانهم فى أن يجتمعوا تحت راية واحدة.

"إن اليهودية قد قامت إلى جوارنا دينا ودولة، وهى ماضية فى خطتها التى نشأت عليها، تشعل جذوة العقيدة فى القلوب، لتحيط حكومة "إسرائيل" بسياج من الحديد والنار.

"وقد آخت العقيدة "اليهودية" تحت علم "التوراة" بين الوافدين من اليمن والعراق، وبين الوافدين من ألمانيا وبولندا، فأصبحوا صفا واحدا يحركه هدف واحد. وقد نرى المشاة فى جيش إسرائيل من يهود الشرق، وبحارة

الأسـطول مـن فنلنـدا، وأسـتونيا، والطيـارين مـن أمريكـا وإنجلـترا .. ربـط هـؤلاء وأولئـك مـا وقـر فـى نفوسـهم مـن أن اليهوديـة ديـن ودولـة.

"فـإذا جئـت إلينـا وجـدت عجبـا! إن نصـف الديـن مـهدوم فـى المجتمـع، لأن تعاليمـه معزولـة عـن الحكـم، ونصفـه الآخـر مـهدوم فـى القلـوب، لأن الشـهوات الرخيصـة، عصفـت بمثلـه العليـا عصفـا". (المرجـع السـابق - ص٢٥١).

والتفكـك الإسـلامى لـم يقتصـر علـى مجموعـة الـدول العربيـة وحدهـا بـل شـاركتها فيـه الـدول "الإسـلامية" ذاتـها مثـل تركيـا العلمانيـة وإيـران الشاهنشـاهية. ويأسـى محمـد الغزالـى فـى مقالـه "ذكـرى": "لأمـر مـا - خفـى علينـا سـره - اعتـبرت قضيـة فلسـطين فـى الميـدان السياسـى قضيـة العروبـة وجامعتـها. فتركيـا وإيـران تعترفـان بإسـرائيل رسـميا، وتتمنيـان لـها الخـير، وهمـا دولتـان مسـلمتان. وفـى الوقـت الـذى يلـف العلـم اليـهودى - باسـم الديـن وحـده - أتبـاع التـوراة، مـن أفريقيـا وأوروبـا، تـهون فيـه آصـرة الإسـلام علـى كثـير مـن الـدول المنتميـة للإسـلام كمـا تـرى". ("فـى موكـب الدعـوة" - ص٢٥٢).

مـن تداعيـات الهزيمـة فـى سـنة ١٩٤٨ - لـم تصـل الصفاقـة بمرتزقـة ذلـك العـهد أن يطلقـوا عليـها "نكسـة" كمـا حـدث بعـد ذلـك فـى حـرب أخـرى سـنة ١٩٦٧ - أن ظـهرت فـى أواخـر العـهد الملكـى وأوائـل الحكـم العسـكرى، أصـوات تدعـو فـى ظـل

النتيجة المحبطة إلى إعادة النظر فى القضية، مستهولين الثمن الفادح الذى ندفع وخسارتنا المحققة فيها .. متخففين من أهميتها. ويذهب البعض إلى أن مسئوليتنا الأولى يجب أن توجه إلى التخلص أولا من الاحتلال البريطانى الذى يكبلنا وقتها. ويذهب آخرون إلى أنها قضية خارجية بالنسبة لنا، وتبحث أصوات أخرى عن كبش فداء تحمله الهزيمة.

ويندد محمد الغزالى بهذه الأصوات جميعا وغيرها التى تتخذ مواقف متشابهة. ويجدها تتسم بغباء وقصر نظر.

"نرفض أن ينتهز بعض الناس هذه الغضبة ليصوروا مأساة فلسطين تصويرا خاطئا، ويلقوا فى الأوهام أننا دخلنا فى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، لم نستفد منها إلا الخيانات والمتاعب، ثم يخلط هؤلاء المبطلون كلامهم الزور بدموع يذرفونها على الشهداء، وأحزان يظهرونها على المنكوبين.

"وبهذه السياسة الملتوية، والمشاعر الملتوية يكلف المسلمون فى مصر أن ينسوا إخوانهم فى فلسطين، وأن يتركوا الأرض المقدسة لليهود، وحسب الشهداء والجرحى والمشوهين أن تجمع لهم دريهمات يطعمون منها". ("فى موكب الدعوة" - ص٥٩).

وفى هذا المناخ تنزوى بطولة الأبطال وحقوق المجاهدين. لقد ظل محمد الغزالى طويلا ينادى بمسئولية

المجتمع والدولة عن رعاية المعوقين وأسر الشهداء، وساءه أن يحدث العكس متجاهلين دور الأبطال الفدائى وتضحياتهم بأرواحهم، ونكافئهم بجزاء سنمار. يكتب فى مقال مبكر له فى عام ١٩٥٠، ونشره بعد ذلك فى "موكب الدعوة":

"أما أسر الشهداء وضحايا الجهاد، فأنا محنق قبل غيرى لإهمالها، وإلجائها إلى انتظار الصدقات قلت أو كثرت. والواجب أن يبقى مرتب المجاهد الشهيد تجريه الدولة على أسرته لا تنقص منه ذرة، حتى يشب البنون ويستغنوا، وتكبر البنات ويتزوجن.

"إن الشهيد حى عند الله، فليبق فيما بيننا حيا، ولا يجوز أن تكون عقبى موته فى سبيل ربه أن ينقطع أول الشهر المرتب الذى كان يأخذه رب الأسرة لينفق منه على أهله. وكذلك ينبغى أن نعامل كل مصاب فى هذه الحروب النبيلة.

"فإن من النذالة أن يفقد الرجل ذراعه أو عينه فى الميدان، فيكون أول ما يتوقعه بعد العاهة التى آذته أن يفصل من العمل لعدم لياقته، ثم يشرع الرحماء فى تصيد الهبات له". (ص٦١).

كان الشعب المصرى بطبقاته المختلفة يجد فى هضم حقوق المقاتلين الشهداء والأحياء جريمة لا تغتفر ويجب ألا تستمر، ويطالب بالمبادرة بتصحيح الوضع جذريا وتعويضهم عن خسائرهم وامتهانهم. وساءهم أن يكون

أقصى ما تقدم الحكومة والهيئات حفلات خيرية يوزع ريعها على المعوقين وأسر الشهداء .. نوع من الصدقة وياله من إذلال للقيم. ومع ذلك فالحال البائس لا يمنع. ولكن؟ "قد يكون أكل الصدقات المبذولة أفضل من الجوع، وقبول المعاونات الطارئة أفضل من الانقطاع فى مجتمع ممزق الأوصال، ومع ذلك فإنى أحس غضاضة شديدة من هذه الحال، وأرى حق الشهداء والمنكوبين على أمتهم أكبر من أن يؤدى على هذا النحو". ("فى موكب الدعوة" - ص٥٨).

لا تعيش أمة على هامش الحياة كما يفعل المسلمون والعرب خاصة حكامهم، أنهم يعيشون فى واد والعالم كله يعيش في واد آخر. فأغلب شعوبنا تتنفس فى أجواء من التبلد لا نظير لها، حتى أنهم لا يدركون الأخطار المحدقة بهم ليل نهار ليعملوا حسابها ويتلافوها. كم من الشعب المصرى مثلا يدرك أن إسرائيل تؤمن أن حدودها الشرعية التى جاءت فى التوراة هى من النيل إلى الفرات!

وفهم العرب والمسلمين - حكاما ومحكومين - لقضية فلسطين وموقفهم منها وتعاملهم معها. يعكس تماما همتهم القعساء وهزالهم الدنيوى والأخروى. فهم بضعفهم وتخاذلهم يجبنون عن مواجهة الحقائق ويدفنون رؤوسهم فى الرمال مقنعين أنفسهم أن كل شىء تمام، سادرين فى أحلام يقظة جوفاء .. والنتيجة أنهم "ملطشة" العالم وإسرائيل. والخوار الذى ألم بهم لم يصب بصرهم

وبصيرتهم فحسب بل عقولهم أيضا، فإذا هم وسط غشاوة دائمة لا تريد أن تدرك الواقع الكئيب الذى يحمل لهم فى كل لحظة تهديدا جديدا لوجودهم نفسه، ومع ذلك فهم لا يشعرون.

ويسوق محمد الغزالى فى مقال مشهور هو "هل يفهم العرب" عدة حقائق تشكل القضية تستوعبها عدة مواقف. الأول .. "قال اليهود وكرروا القول: إن فلسطين لن يعيش فيها إلا شعب واحد، نحن أو أنتم أيها العرب .. أحد الجنسين يجب أن يختفي من على وجه الأرض، وقد قررنا البقاء، فاستعدوا أنتم للموت"! ("الحق المر" ج٣ - ص٢٥). ولكن كيف الخروج من المأزق والتصدى للكارثة؟ حل واحد: "ما دام لابد من الجلاء أو الفناء فلا يسوغ أن أترك عدوى دون صراع يمرغه فى العار قبل أن يقذف فى النار. لا يسوغ أن أدع له الأرض غنيمة باردة بل يجب أن تكون مقبرة لى وله وليرث الأرض بعد ذلك من يرثها، وفق سنن الله فى هذه الحياة".

والموقف الثانى يتصل بالحكام .. "لماذا لا يكون ولاؤكم للإسلام صريحا فصيحا، وانتماؤكم إليه باديا عاليا. إذا كان بنو إسرائيل يقدسون السبت ويرفعون التلمود ويشقون حناجرهم بمواريث التوراة، وبناء دولة دينية من الفرات إلى النيل، وبناء هيكل الرب على أنقاض المسجد الأقصى لتعود مملكة سليمان فى هذا العصر الأسود تحكم المشارق والمغارب. إن بعضكم أيها الساسة الأكابر يعتنق

العلمانية أو القومية أو أى شىء يستخفى فيها معالم الإسلام، فلا تظهر فيه عقيدة ولا شريعة، ولا تلمح فيه أخوة الإيمان ولا مواريث حضارة قامت باسم الله بضعة عشر قرنا! لماذا يرتبط الناس بأديانهم وتزهدون أنتم فى دينكم؟! أليس فيكم رجل رشيد؟". (المرجع السابق - ص٢٥).

معرفة العدو هى أول خطوة فى القضاء عليه، هذه البدهية تبدو منذ أربعينيات القرن العشرين فى الأرض العربية لغزا. وقد وعى الشعب المصرى هذه الحقيقة منذ العقد الأول من القرن الفائت، بعد أن أيقظت أو بلورت ثورة مارس ١٩١٩ الوعى القومى. وكانت معرفة المستعمر الإنجليزى الوسيلة الأولى للقضاء عليه، بينما لا يعرف العرب والمسلمون إلى اليوم عدوهم الإسرائيلى .. حياته، فكره، اتجاهاته، إلا هامشيا سياسيا ضئيلا يكاد يقتصر على الجانب الرسمى المحض. ويرجع محمد الغزالى ذلك إلى جهلنا وأننا شعوب لا تقرا ولا تعرف.

"إن علم التاريخ واحد من العلوم الخطيرة التى ظلمت فى ثقافتنا والتى انكمشت مساحتها فى وعينا حتى صرنا لا نعرف أنفسنا ولا نعرف غيرنا، ومن ثغرات الجهل تتسرب المهالك والعطوب". ("الحق المر" ج٣ - ص٩٠).

وتناول مفكرنا للصراع العربى الإسرائيلى يقوم على استيعاب وفهم كامل للواقع والتكوين والتاريخ اليهودى، فإذا

ما يحدث اليوم من عداء للعرب والمسلمين، هو نفسه الذى وقع فى الجاهلية وبعد ظهور عقيدة التوحيد. فالحقد المسيطر لم يجعل اليهود وهم أصحاب دين سماوى أن يهدوا الوثنيين فى الجزيرة العربية، لم يفعلوا لأن من صالحهم الشخصى أن يظل العرب فى الجاهلية على ضعفهم وعلى عبادتهم للأوثان، ليبقى اليهود أقوى منهم. يكتب داعيتنا فى كلمته "إيمان مغشوش لا يحتوى إلا على الحقد العام":

"عندما فر اليهود من الاضطهاد الرومانى إلى شمال الحجاز كانوا يحملون فى حناياهم وفى سيرتهم تدنيا جديرا بالتأمل، كانوا يرون أنهم شعب الله المختار، وأن سائر الأمم خلقت لخدمتهم وأن ما بأيديها من أموال هو حق اليهود الذى يجب أن يستردوه.

"وإذا كان العرب فى جاهلية فلتبق هذه الجاهلية إلى الأبد، فذلك أعون على بقاء بنى إسرائيل فى وضعهم العالى، وأعون على بقاء الفروق بين الشعب المختار والعبيد المسخرين. ومن ثم لم يرتفع صوت يهودى بمحاربة الوثنية السائدة، ولم ينطلق مبشرا بجنة أو منذرا بنار". ("الحق المر" - ج٣ - ص١٢٧).

ومتابعة داعيتنا الدقيقة الدائبة لقضية فلسطين استمرت حتى وفاته، فهى محور ثابت فى فكره ومواقفه وكتاباته. يقارن دائما بينهم وبيننا، وإذا كفتهم فى كل مقارنة هى

الراجحة مع الإصرار على إشاعة الوعى واليقظة لتعدل حالنا المائل. "تأذنت الأقدار بقيام إسرائيل على أرض فلسطين الإسلامية .. فهل مددنا أبصارنا لنعرف كيف يحيا القوم وكيف ينصرون اليهودية؟".

ولعل بعض القراء دهشوا لاهتمام مفكرنا بالكتابة بإسهاب عن نواح لم يعرف أنها من اهتمامات الدعاة والفقهاء، لأنها خارجة عن تخصصهم الدينى، ولكن الشيخ محمد الغزالى يفعل. فمعرفة العدو الدقيقة هى بداية التحدى الحقيقى. ومن هنا تابع مثلا مشاريع إسرائيل الصناعية واستخدامها الطاقة الشمسية والهوائية والذرية بتفصيل ليساهم فى توعية الأمة ويوقفها على مدى خيبتها وبلادتها وتأخرها وتفضيل السبات على الصحو، بينما عدوها على العكس تماما ينطلق فى تثبيت جذوره على أسس راسخة من العلم، ليتقدم فى كل المجالات من زرع الصحراء إلى صنع القنبلة الذرية.

ومحمد الغزالى وهو ينعى على المسلمين تقاعسهم الذى ألصقهم بالطين يلفتهم إلى أن يأخذوا المثل فى النضال من أعدى أعدائهم وهم الإسرائيليون، الذين كافحوا طويلا وجمعوا أنفسهم من شتى بقاع العالم وتمكنوا بالجهد والعرق من تأسيس دولة لم يكن لها وجود على خريطة العالم قبل سنة ١٩٤٨ .. دولة تخيف العرب والمسلمين.

"فلينظروا إلى خصومهم اليهود وكيف تحملوا التحريق

والتمزيق وصنعوا من آلامهم جسرا عبروا عليه إلى أرضنا وعرضنا".

أعلنت إسرائيل وأصدقاؤها منذ البداية موقفهم الحاسم من العرب والمسلمين، وأن حدودها كما جاء فى العهد القديم - الذى يؤمن به المسيحيون واليهود - من النيل إلى الفرات، وهى قد وجدت لتبقى، ولن يمسها أعداؤها بسوء لأنها فى حبة عيون أحبابها. وقد أكدت الأحداث ومرور السنين منذ أكثر من نصف قرن هذا كله. وهذا الذى يحدث لا يفهمه لبلادة وقصور ذهن العرب والمسلمين أبدا ولا يريدون أن يفهموا .. كأنهم مخدرون وفى غيبوبة تطمس عقولهم وأبصارهم. وفى كل مرة تتخذ إسرائيل وحماتها موقفا عدائيا منا، نندهش كأنها مفاجأة غير متوقعة.

يكتب الشيخ محمد الغزالى فى "هموم داعية":

"ونريد - والإسلام يتعرض لمحنة كبرى - أن نحدد المواقف .. إن أعداءنا لم يكتموا من نياتهم شيئا، لأنهم لم يروا أمامهم ما يبعث الكتمان أو الحذر.

"اليهود يقولون: لا قيمة لإسرائيل بدون القدس، ولا قيمة للقدس بدون الهيكل، والمعنى واضح فإن الهيكل المطلوب فوق تراب المسجد الأقصى.

"والصليبيون الجدد يقولون: خلقت إسرائيل لتبقى .. بل يهددون بنسف هيئة الأمم إذا اتخذت قرارا بفصل

إسـرائيل.

"إن المعركـة فـى حقيقتـها - ليسـت حشـد بضعـة ملاييـن مـن اليـهود فـى فلسـطين لسـبب أو لآخـر .. إن المعركــة حـول الوجـود الإسـلامى كلـه". (ص٤٦).

كثـير مـن العـرب والمسـلمين - أمييـن ومتعلميـن ومثقفيـن - يحسـنون الظــن كثـيرا بالعــالم الغربــى، ويظنــون أن واجهتــه الحضاريـة البراقـة تعنـى الصـدق والحـق والموضوعيـة، فيمـا يصـدر عـن أصحابـه مـن قـول وفعـل، وأن مبادئـهم الرفيعـة التـى يؤمنــون بـها وأقــاموا الثــورات مــن أجلــها ضــد الظلــم والاسـتبداد والوحشـية، هـى قيـم تسـرى فـى دمائـهم وتنبـض بـها عقولـهم وقلوبـهم، فيعـاملون الآخريـن علـى أساسـها. ولكـن هــذا كلــه غــير صحيــح وينجـم عــن الجــهل والســذاجة والاطمئنـان إلـى ظواهـر الأمـور. فشـتان بيـن مـا يبطـن الغـرب لأهلـه وبيـن مـا يحمـل لغير الرجـل الأبيـض والـدول المتـأخرة .. إنـه يكـن لـهم النقيـض. ولذلـك عرفنـاه مسـتعمرا لبلادنـا عـدوا لأمانينا مؤيـدا لخصومنـا طـوال القـرون. وأوضـح الأمثلـة علـى ذلـك موقفـهم مـن قضيـة فلسـطين. فـهو الــذى أعطـى لليـهود وعـد بلفـور وسـاعد علـى إنشـاء إسـرائيل وحماهـا وأيـد عدوانـها المسـتمر علينـا. يقـول مفكرنـا تحـت عنـوان "سياسـات خسيسـة لـدول كبيرة": "القـوم علـى مـا يبـدو مـات ضمـيرهم السياسـى والخلقـى، وظلـوا علـى عدائـهم التقليـدى لشـعب فلسـطين البـائس الشـريد". ("الحـق المـر" - ج٣ - ص٣١).

والدول الكبرى كل على حدة هى نفسها عندما تجتمع فى منظمات دولية، نفس الموقف القديم تتخذه مجددا ممن تعده صديقها أو عدوها على حساب القيم والعدل والحق، وبذلك تسقط وتهضم حقوق الشعوب الضعيفة، رغم شعارات هذه المنظمات الدولية التى أقيمت وسط دعايات مبهرة. "لم أحس أن الضعف جريمة ورذيلة ومصيبة إلا وأنا أتابع ما يتخذ ضد العرب من قرارات فى الهيئات الدولية.

"هذه الدول لا تحترم إلا من له ناب وظفر، إنها تستمع إلى كلامه بتهيب وتأدب، أما الحق الأعزل فإن مجلس الأمن هو صانع كفنه ومهيل التراب عليه فى صفاقة نادرة لا سيما إذا كان الحق يمس العرب، أو يرجح كفتهم، أن وأده فريضة لازمة نافذة"! ("الحق المر" - ج٣ - ص١٩١).

وهكذا ضاعت حقوق الشعبى الفلسطينى!

يقدس الغرب الحرية إلا أن تكون موجهة ضده أو ضد مصالحه .. هنا تصبح جريمة وحركة إرهابية عدوانية. وفرنسا المكافحة مثلا ضد احتلال النازى لأراضيها فى الحرب العالمية الثانية .. عمل مشروع شريف، بينما نفس العمل عندما يقوم به الفلسطينيون ضد إسرائيل يصبح عملا إجراميا خسيسا، وأقل نعوته .. الإرهاب. ويناقش مفكرنا القضية التى تكشف عن بغض الغرب الممقوت للإسلام والمسلمين. ويتحول المدافعون عن حرية أوطانهم إلى معتدين آثمين. وليت الأمر وقف عند حد السياسيين

إذن لهان الأمر، ولكن تعداه إلى أن يصبح العالم الغربى كله غوغائيا متشنجا يطالب برقاب الفلسطينيين الهمجيين ومعه ضمنا المسلمين جميعا!

"ويبدو أن حبل هذا الإفك لا ينقطع، وقد وزعت أدوار هذه الأكذوبة الكبرى على أطراف شتى تجمع بين مبشرين، وصحافيين، وممثلين، وتجار كتب، وتجار سلاح، وباعة "كاسيتات" وأشرطة "فيديو" وساسة خبثاء، وأتباع حمقى".

ويفسر محمد الغزالى هذه الظاهرة بقوله فى نفس مقاله "أينا الإرهابى": "والإصرار على اتهام الإسلام بأنه دين إرهابى هو - كما يقول علماء النفس - نوع من الإسقاط الذاتى يدفع المرء إلى اتهام غيره بما فى نفسه هو من شر، وبما كسبت يداه من إثم"! ("الحق المر" - ج٣ - ص٨).

وتتشكل نظرة المفكر الموضوعى قبل الإحاطة بموضوعه، من الصدق والأمانة وعدم الخداع، ولذا فعندما يناقش شيخنا قضية فلسطين، فهو بجانب إشارته إلى جرائم إسرائيل فى حق الفلسطينيين، يذكر أيضا جرائم العرب - بعضهم - ضدهم. يكتب فى إحدى مقالاته .. "لقد وهت علاقتهم بالله، وتقطع ما بينهم من أخوة، بل إن بعض العرب حاصر مخيمات اللاجئين قبل أن تحاصرها شراذم اليهود. وظل هذا الحصار بضع سنين حافلا بالمآسى حتى ألفت طبيبة إنجليزية كتابا عن آلام أطفال الحصار. فلنلم أنفسنا

قبل أن نلوم غيرنا.". ("الحق المر" - ج٣ - ص٧).

وإبعاد الروح الإسلامية عن قضية فلسطين، جعل الإخاء الإسلامي مفتقدا. لأن أهل التوحيد في العالم يخجلون من إعلانه كأنه سبة أو عورة يجب إخفاؤها، بينما أهل التوراة داخل إسرائيل وخارجها يفعلون العكس تماما، ويجهرون به في النظرية والتطبيق والسر والعلن، في الصغيرة والكبيرة. يقيمون صلاتهم في أي مكان في العالم وعلى ملأ من الناس، مؤكدين شدة ارتباطهم بدينهم والحفاظ عليه رغم المحن، وأقاموا دولة بينما المسلمون أضاعوا له دولة في القديم والحديث. إن تبلدهم وجهلهم وعدم استخدام عقولهم منعهم الاستفادة من عبر الزمان وأحداث تاريخهم ومن خطى أعدائهم أنفسهم وهي تترى كل يوم حاملة الدروس.

فقوة الإخاء اليهودي يضرب بها الأمثال. إن الذي أحرق المسجد الأقصى هو يهودي أسترالي، ومن أطلق الرصاص على المصلين في ساحة نفس المسجد يهودي أمريكي! ويعقب شيخنا:

"إن الأخوة الدينية جمعت بين الأستراليين والأمريكيين لدعم إسرائيل وكذلك جمعت هذه الأخوة بين شرق أوروبا وغربها، وبين اليهود العرب في أفريقية وآسيا. وعد أولئك كلهم أولاد الأنبياء، ونسل يعقوب المبارك.

"والعالم المتحضر لا يرى في هذا الرباط شيئا ينكر .. الشيء الذي ينكر حقا هو الإخاء الديني بين المسلمين

وحدهم، وتحول هذا الإخاء إلى سياج يحمى عرب فلسطين من الهاجمين عليهم.

"ومن ثم كانت قضية فلسطين عنصرية لا دينية، كما يصورها لنا الخادعون المخدوعون".

ويقول مفكرنا في موضع آخر فى "هموم داعية":

"إن دوران المعركة على هذا المحور هدف استعمارى انزلق إليه العرب فى محنتهم النفسية والعسكرية، ولن ينالوا من ورائه خيرا.

"فبنو إسرائيل يديرون المعركة على أساس دينى بحت ويستقدمون أتباع التوراة من المشرق والمغرب قائلين: تعالوا إلى أرض الميعاد، تعالوا إلى الأرض التى كتبها الله لأبيكم إبراهيم كما أكد العهد القديم". (ص٢٥).

"فكيف برب الأرض والسماء، يصرخ القوم بانتمائهم وننسلخ نحن من هذا الانتماء، مؤثرين عليه انتماء عرق لا يقدم ولا يؤخر"؟! (ص٢٧).

ويقول محمد الغزالي أيضا:

"فى حرب تعلن علينا باسم الدين لا مجال لإطفائها بالتنكر لديننا.

"لماذا يتقرر إبعاده عن المعركة، ولحساب من؟

"إن رفض الإسلام فى هذه الساعة هو الانتحار، وطريق

الدمار، بل هو قرة عين الاستعمار".

إن رأى المهاجر اليهودى إلى إسرائيل فى القضية هو: "إن اهتمامى الرئيسى منصب على عودة الشعب اليهودى للإقامة بأرضه .. وإذا كان العرب لا يرون أن نصوص التوراة ليست سببا كافيا لحق الملكية فليست هذه مشكلتى". (ص٢٦).

بالرغم من اتسام قضية فلسطين منذ البداية على المستوى الشعبى بالإسلامية والجهاد فى سبيل الله منذ وعد بلفور وردا عليه، وتكريس مفتى فلسطين لهذا الاتجاه، إلا أن الدول العربية ما لبثت منذ الخمسينيات من القرن العشرين والانحياز العربى الرسمى نحو الغرب يكاد يكون تاما، أن خفتت نسمة الإسلامية حتى انمحت في تصريحات الرؤساء والملوك العرب، ولم يعد يذكر لونها الإسلامى. بل أن الإعلام العربى الحكومى ساير إعلام العالم الغربى وهو يطلق على قضية فلسطين "قضية الشرق الأوسط" فى محاولة للقضاء على الاسم من الذاكرة - هل نذكر بالمناسبة ما فعله الطاغية جمال عبد الناصر وهو يلغى اسم "مصر" تماما فى تحد فاجر للملايين ليصبح "الجمهورية العربية المتحدة".

ومن الغريب أن يحدث من العرب هذا الإقصاء الإسلامى إزاء دولة - إسرائيل - قامت أصلا على دعاو دينية! وكان الشيخ محمد الغزالى فى مقدمة الذين نددوا بهذا الاتجاه

الضيق لأصحاب الحق، بينما العداة المحتلون لم يخشوا العالم الغربى العلمانى الذى يرفض الاتجاه الدينى وفرضوا عليه أن يبارك ويعضد دولتهم التوراتية. أما الحكام المسلمون وفى مقدمتهم الرئيس الفلسطينى فيرتجفون هلعا من رفع راية الإسلام على الوطن السليب .. "واستحيا العرب أن يلوذوا بالإسلام مدافعين، أو يذكروا اسمه فى أى مجال، أو أن يقيموا نظمهم السياسية والاقتصادية على أساسه لا إسلام هنالك، لا تنادى باسمه، لا تجميع عليه .. ربما طلب عند الغرق لأن الضرورات تبيح المحظورات وعندئذ يطلب ليكون دوره ثانويا وحسب.".

ويقول محمد الغزالى فى موضع آخر:

"ونقولها لعرب اليوم بصوت عال: إن فلسطين لن يحررها إلا جيش مسلم، أما تجمع العرب بلا دين فلن يحرر جحر نملة!

"وعلى العرب أن يعرفوا فضل الإسلام عليهم، وأنه أكسير وجودهم وبقائهم، لقد دخلوا به التاريخ فلما خانوه خرجوا من التاريخ أذلة مطرودين".

وفى السنوات التى تلت هزيمة ١٩٦٧، تضاعفت المحن فى البلدان العربية خاصة التى احتلت أراضيها فى هذه الحرب وبالذات فلسطين. فلم تعد المسألة تقسيم ١٩٤٨ واللاءات الفلسطينية العاجزة المشهورة، التى كانوا يرفعونها رافضين أية تسوية، بل الخيبة الجديدة أعلنت عارهم أكثر،

ولم يبد منهم أقل إشارة بمقاومة، حتى أن "يوم الأرض" الذى يحتفلون به، كان مجرد مظاهرة بائسة تردد فيها هتافاتهم بحقهم التاريخى فى الأرض!

ويأسى الشيخ محمد الغزالى وقتها لهذا الهوان، ويرفض للفلسطينيين أن يذلوا أنفسهم لهذه الدرجة، ولا تلوح فيهم بادرة روح نضال تحمسهم لقضيتهم "وشعرت بالسخط وأنا أسمع ما قيل من شعر ونثر، إذ كان المتحدثون يؤكدون عروبة فلسطين، لأن الكنعانيين هم أصحابها الأوائل، والكنعانيون والعدنانيون والقحطانيون جميعا عرب، أما بنو إسرائيل فهم طارئون غرباء!".

وعندما تقوم الانتفاضة الأولى تبعث اليقظة وتعيد الأمل .. ويسعد محمد الغزالى كما تسعد الأمة الإسلامية بعودة الروح وانتهاج الطريق الحقيقى لاستعادة الكرامة والحرية والوطن السليب، لا يملك إلا التحية الخالصة والتهنئة الحارة..

"يا أبناءنا الأبطال فى فلسطين المجاهدة، حيا الله كفاحكم ونضر وجوهكم. لقد أثبتم أن الإسلام كان ولا يزال صانع الرجال، وملهم المقاومة الباسلة ومقدم الشهداء العظام.

"إن انتفاضتكم الأخيرة مسحت عن وجوهنا الخجل، وأخرست المرتدين والخونة، وأثبتت للعالم أن جذوة الإيمان لم تخمد، وأن عزيمة الأبطال لم تضعف، وأن كل

هدوء يعقبه إعصار يلحق بالمعتدين الخزى والعار.

"يا أبناءنا الأبطال فى فلسطين المجاهدة .. إذا كانت اليهودية سلاح هجوم فليكن الإسلام سلاح دفاع. احرصوا على انتمائكم الإسلامي وتشبثوا به فإن المعتدين يريدون اغتصاب الأرض والعرض والدين والدنيا جميعا، وليس لنا إلا الاستمساك بديننا والتحصن بعقائده وفضائله، والجهاد الطويل تحت رايته إلى أن يمن الله علينا بالحرية التى تكسر القيود وتغسل أرضنا من أدران اليهود وترد كيدهم إلى نحورهم.

"نعم .. يجب أن نستخلص حقوقنا من إخوان القردة الذين استباحونا ونالوا منا وأخرجونا من ديارنا، وحاولوا محو تاريخنا ورسالتنا ووجودنا كله". ("الحق المر" - ج٣ - ص١١٧).

ومفكرنا حين يفعل ويوجه التحية والإعزاز، لا يتجاهل أبدا ما يحيط بالانتفاضة والبعث من مثبطات ومحبطات داخلية وخارجية تعمل على إجهاضها، ويلتمس فى الإيمان بالله والاحتماء بالإسلام سلاحها الأول، الذى يثبت ويشجع ويجدد القوة المعنوية، وينبه إلى التكاتف والوحدة والاعتصام بالله.

وفى مناقشة الشيخ محمد الغزالى للانتفاضة الفلسطينية الأولى، يكون من تناوله لأحد جوانبها، موقف الدول الأجنبية خاصة أمريكا. ويفند الدعوى الأمريكية المعروفة

"أنه شعب مؤمن"! ويتساءل مندهشا: أى إيمان هذا الذى يزعمون؟ وهم يباركون المجازر الإسرائيلية للفلسطينيين ويكتب:

"إن الأمريكيين افترسوا الهنود الحمر ثم ورثوا أرضهم قسرا، وهم يريدون تكرار المأساة نفسها حتى يرث اليهود أرض العرب فى حرب إبادة من أوضع الحروب التى وعاها تاريخ العالم.

"إن الذين ينتظرون عدالة بشرية أو نزاهة أخلاقية عند أولئك المتعصبين الحاقدين إنما يؤملون فى سراب خادع.

"على العرب أن يصلحوا ذات بينهم وأن يسووا صفهم وأن يكافحوا بكل ما فى أيديهم. ولأن يموتوا شرفاء وهم يقاومون الاستعمار الهاجم أفضل من قبول سلام يفرضه الجزارون فيه شبه حياة اليوم والموت المجهز غدا". ("الحق المر" - ج٣ - ص٢٤٨).

وإذا كان موقف العالم الغربى مفهوما من قضية فلسطين وانتفاضة أبنائها ضد الاحتلال الإسرائيلى، فإن الأعجب منه لأنه بلا منطق موقف العرب والمسلمين المتفرج ببلادة على المآسى اليومية التى تقع لإخوانهم فى الدين، من التدمير والقتل والتنكيل بشعب أعزل يقاوم محتليه مطالبا بحقوقه المشروعة. إن بعض البلدان العربية فى ظل حكامها المستبدين خاصة أيام المد "الاشتراكى"، كانت شديدة التعاطف لما تتعرض له الشعوب الشيوعية والقادة

الماركسيون، مثل فيتنام وجيفارا. والعكس تماما بالنسبة إلى فلسطين والانتفاضة! كيف ولماذا؟ على الأقل من وجهة نظر الموضوعية والقيم، قبل أن تكون من وجهة نظر الإسلام الذى يتحدثون باسمه إلى جماهيرهم؟ "

.. يكتفون بالكلام الأجوف والتعليق البارد.

"إنه لا توجد خطط جماعية بين العرب لمواجهة هذا العدوان المستمر.

"إن ترك الثائرين فى فلسطين يلقون مصيرهم وحدهم جريمة لها عواقبها فى الدنيا والآخرة، والذين يقفون اليوم متفرجين سيكونون صرعى الغد القريب أو البعيد، فالرحى الدائرة لن تتركهم أبدا.". ("الحق المر" - ج٣ - ص٢٢٥).

كلمات لمحمد الغزالى

❁ الاعتقاد فى المنطق القرآنى نبت وسط حرية البحث والتأمل وطلب البرهان.

❁ أن المسلمين من أفقر أهل الأرض إلى قوانين صارمة تحرس قيمهم الدينية ونصوصهم السماوية.

❁ الجوع كافر وحقد المحرومين قاتل.

❁ حتى متى يسترسل المسلمون مع أخطاء قديمة؟

❁ التربية الراشدة الناضجة هى الضمان الأول لكل نهضة، والبيت هو المدرسة الأولى لتلك التربية .. وعندما تكون المرأة صفر العقل والقلب، لا ثقافة فى مدرسة، ولا عبادة فى مسجد .. فمن أين تحقق التربية المنشودة.

❁ فقدان التربية السديدة، والأخلاق الصلبة يرجع إلى العوج الهائل فى وسائل التربية وأول ذلك المرأة المخرفة الغافلة، والبيت الساذج المحدود.

❁ إن الإسلام يؤخذ من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ والمجتمع الذى يصنعه الكتاب والسنة يجعل

المرأة تلد ذريات مشرقة، باهرة الأخلاق لا دابة تلد حيوانات.

۞ أما الإسلام .. فإن الجهود الفردية التى بلغت رسالته من قديم لا تُزال تواصل عملها بكلال وقصور. وأكاد أوقن بأنه لولا عناية عليا ما بقى للإسلام اسم ولا كتاب .. فإن أجهزة الدعاية الإسلامية وهم كبير، حتى بعد قيام جامعات كبرى على الاهتمام بعلوم الدعوة وطرائق نشرها.

۞ وإذا عجز المسلمون عن خلق أوضاع اقتصادية تحمى عقائدهم وإذا عجزوا وهم فى داخل بلادهم عن أن يحترموا حقوق الإنسان المسلم وكرامته وحرية رأيه وحقه فى حكم نفسه بنفسه. وإذا عجز المسلمون عن ذلك فلا يجوز أن يلوموا المتربصين بهم المتخطفين لأبنائهم.

وإنه ليحز فى النفس أن يكون لدينا أغنياء يبذلون الألوف المؤلفة فى إشباع الشهوات، وتجف أصابعهم عن بذل شىء فى حماية الأرض والعرض والإيمان والشرف.

۞ إن الألف مليون مسلم أو يزيد الذين ينتشرون الآن على ظهر الأرض يواجهون مستقبلا غامضا، وتستوى القلة والكثرة أمام هذا المستقبل لأن الإسلام الذى يجمع بينهم رباط منكور أو هو رباط ثانوى فى أحسن الظروف، والرباط الأول هو القوميات الضيقة أو الواسعة.

۞ إن التعتيم على الجهاد الإسلامى خطة دولية مقررة، وما نرتاب فى أن الدم الإسلامى أرخص دم فى القارات الخمس.

❁ من حق الأمة التى تأذت رسالتها وتردت سيادتها أن تعيد النظر مرة ومرة فى الأسلوب الذى تحكم به جماعتها وتبلغ به دعوتها.

❁ إن الاستبداد السياسى داء دوى، وليس أسوأ منه إلا تجاهل أثره والتعامى عن خطره.

❁ والحكم الفردى عظيم المهارة فى التحريف والتزييف والنجاة من التبعات.

❁ إن طريقة الإسلام فى إدارة دفة الحكم هى التى جعلت الشعوب تفتح ذراعيها له، لأن الحكم كان عبادة لله، ولم يكن شهوة منهوم إلى العظمة، أو مفتون بالسلطان.

❁ كلمة التوحيد كما تعنى إفراد الله بالعبودية تعنى أيضا ما يسمى فى عصرنا بحقوق الإنسان وكرامات الشعوب.

منها فهم عمر أن الناس يولدون أحرارا فليس لأحد حق فى أن يستعبدهم، وأن البشر عبيد أمام الله وحده، وسادة أمام غيره فما يسوغ أن يتلاشى وتذوب ذاته أمام إنسان مثله.

فكيف يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله؟ ولماذا تنشأ أوضاع يكون الولاء فيها لشخص، يهاب أكثر مما يهاب الله، ويرجى أكثر مما يرجى؟

إن الاستبداد السياسى الذى صنع هذه الأوضاع وحماها

.. قبر تحت ترابها الأخوة الإنسانية والدينية، فليس ثم إلا فرد يرغب ويرهب وآخرون يزدلفون ويرتقبون، ومراسم غريبة لوثنيات سياسية أعقد من الوثنيات التى اختلقتها الجاهليات الأولى.

أما وجه الله وحكمه، فشىء يجىء فى المرتبة الثانية إن جاء.

إن عبادة القصور على امتداد العصور ديانة خسيسة خلقها الحكم الفردى، وزحم محاريبها بالأقزام والأفاكين.

وهى ديانة زاحمت الإسلام الحق وهزمته فى ميدان الحياة العملية وجعلت العبقريات تتوارى والإمعات تتكلم بصوت جهير!

❁ إنما استكبر من استكبر من الفراعنة والجبابرة لأنهم وجدوا من الرعاع من يسارع إلى إجابة أهوائهم وإطاعة نزواتهم دون بصر أو حذر فعتوا فى الأرض وعلوا علوا كبيرا.

ولو أنهم عندما أصدروا أوامر يمليها الغرور وتنكرها الحكمة وجدوا من يردها عليهم ويناقشهم الحساب، لتريثوا طويلا قبل أن يأمروا بباطل.

❁ وإننى لأمقت أن أكون داعية لحاكم ما، وأستعيذ بالله من أن أعين بكلمة على بقاء وال جائر.

❁ وعقدة الضعة تجعل صاحبها لا يكتفى بتخطى من هم

أكفأ منه، بل إنه يسعد بتحطيمهم، وييسر إذ يقدر على إقصائهم وإطفائهم.

۞ يجب ألا تأخذ رأينا كقضية مسلمة، ولا أن تقبل كلام غيرنا دون مناقشة وتدبر، بل يجب أن نبحث عن الحق، ونجتهد في الوصول إليه، فإذا عرفناه عرفنا الرجال على ضوئه وصادقناهم أو خاصمناهم على أساسه.

إن المسلم الصادق هو الذى يعرف الرجال بالحق، أما أولئك الذين يعرفون الحق بالرجال ويثقون فى أى كلام يلقى إليهم لأنه صادر عن فلان أو فلان، فهم أبعد الناس عن فهم الإسلام، بل هم آخر من يقدم للإسلام خيرا أو يحرز له نصرا.

۞ الإسلام يحتاج إلى الهمم البعيدة والمشاعر الحية النابضة، فاحذروا الرجال الذين سقطت همتهم وبردت عاطفتهم وفرضوا موات أنفسهم على دين قام من نشأته بحب المحقين وبغض المبطلين. فالمتأمل يرى أن من الواجب قمع الغرور الذى يستولى على أغلب العاملين فى البيئات الدينية، فيشط بهم بعيدا عن مرضاة الله وعن إقناع العقلاء.

۞ لمصلحة من يصور الحاكم فى الإسلام على أنه رجل ذو سلطات خيالية، الخضوع لها إيمان والانحراف عنها خسران؟

۞ ينبغى أن نفرق بين الولاء للدولة والولاء لشخص

الحاكم .. إن الولاء للدولة حق، والانحراف عنها منزلقة إلى الخيانة العظمى.

❁ إننا شعوب لما تبلغ سن الرشد، سن الإنتاج والاستقلال والاستغناء.

لماذا؟ لأنه ليس للعرب والمسلمين منهج عمل إسلامى، بل ليس لهم ولاء عارم للإسلام وتشبث ظاهر بعقائده وأخلاقه ومثله وشرائعه.

ومن ليس له من ذاته ما يحركه ويوجهه لا يستغرب منه أن ينجر وراء الآخرين.

❁ أن الشعوب والحكومات العربية لما تبلغ سن الرشد، إنها فى وصاية غيرها ماديا وأدبيا، إنها عالة على غيرها فى طعامها وسلاحها جميعا.

وقد هبطت إلى ذلك الدرك لخوائها الروحى والفكرى.

ومسئولية ذلك التخريب تقع على عواتق نفر من الفقهاء والدعاة والرؤساء والساسة.

وإذا كنا فى القرن الخامس عشر مستصحبين عوامل الهبوط فلن تزداد أمورنا إلا خبالا.

❁ الحكام فى الشرق العربى والإسلامى يعدون المناصب حياتهم .. فالرئيس أو الوزير فى أوروبا مثلا قد يترك وظيفته ويسير آمنا فى أية مدينة أو قرية.

أمـا فـى شـرقنا العليـل فـإن عـددا مـن الزعمـاء إذا تـرك الحكـم تابعتـه تـرات قـد تـودى بـه، وتخـترم أجلـه، ومـن ثـم فـإن حرصه على الحكم لـون مـن دفاعـه عـن حياتـه.

❁ مـن حـق الإسـلام أن يحيـا، ويبقـى وينمـو، ويمتـد .. مـا دام هنـاك مستمسـك بـه، راغـب فيـه.

ولكننـا نشـعر بـأن أعـداءه يضنـون عليـه بـهذا الحـق، ويحـاولون بـالختل والجـهر القضـاء عليـه، أو تقليـص وجـوده فى أضيـق نطـاق.

وقـد اسـتطاع أعداؤنـا - بتفريطنـا وخبثـهم - أن يحرجونـا وينـالوا منـا ويذلـوا جانبنـا.

❁ الهزيمـة أو النصـر شـعور داخلـى قبـل أن تكـون ظروفـا خارجيـة.

❁ إن تزويـر الانتخابـات خيانـة عظمـى، وإذا كنـا قـد رفضنـا تـوارث الخلافـة لأنـه يـأتى بأدمغـة تافهـة، فـإن الـتزوير الـذى أتقنـه بعـض الحكـام لـن يـأتى إلا ببعـض الفتـاك والشـطار وهـواة الفرعنـة، ووجـود هـؤلاء طـاعون يغتـال الكفايـات والأمانـات.

❁ الإسـلام يمنحنـا حريـة الـرأى، ولكنـه لا يسـمح لفريـق منـا أن يفـرض إرادتـه علـى فريـق، يفـرض زعامتـه علـى أمـة علـى الرغـم منـها، أو يحـول المسـلمين إلـى أغنـام يسـوقهم أمامـه، وكأنـه الراعـى الوحيـد، شـرط الإسـلام الأكـبر أن يكـون

المسلمون أحرارا ولا مكان فيهم للطغاة ولا للعبيد، فلا تزجوا بالإسلام فى خلافاتكم، وحاولوا. أن ترتفعوا إليه، بدل أن تنزلوه إليكم. ويل للذين ينتزعون الرايات العظيمة ويحاولون أن يمسحوا فيها أحذيتهم.

۞ الحكم الفردى بطبيعته يبغض أولى الكفايات الكبيرة، ويتجهم لمرآهم، ويغلق الأبواب فى وجوههم.

۞ إذا كان سنا البرق يبدو من التقاء سحب شتى فإن سنا الحق يبدو من التقاء آراء شتى.

۞ إذا وجب على الأمم أن تعتبر بماضيها، فالأمة الإسلامية أولى أمم الأرض بأن تحتاط ضد الاستبداد السياسى، وأن تمنعه من قتل مستقبلها بعد ما أسقم ماضيها وعرقل خطوها وشل رسالتها.

وكل دعوة دينية لا تحسن الاعتبار بما كان فهى وبال على نفسها ودينها، ويجب أن ينصرف عنها المسلمون.

۞ إن الفساد السياسى عندنا كان السرطان الذى أودى بحضارتنا ورسالتنا خلال قرون مضت .. إن حكامنا كانوا القشرة العفنة في كياننا من زمن بعيد.

۞ إن أجهزة الإعلام قد تهتمّ بإذاعة مباراة لكرة القدم، يحتشد مئات الآلاف لرؤيتها، نعم فإن الناس عندنا تسحرهم فلسفة الأرجل المتحركة فى الميدان المائج.

أما فلسفة القلوب المتوهجة باليقين.

وأما فلسفة العقول الباحثة عن الحق.

وأما فلسفة العقائد المتطلعة للحياة .. فهذه أمور ليست ذات بال!

۞ التناصر بين المسلمين واجب، فكيف ينصر المسلم فى أفريقية أخاه فى آسيا، هل فكرتم فى ذلك، واكتشفتم وسيلة مادية أو أدبية؟

۞ إن أعراس الحرية كثيرا ما تحولت إلى مآتم يحفها السواد الكئيب، وتلهث فيها الجماهير الشقية، وتستباح فيها الدماء والأعراض.

۞ الله عندما يصطفى عبدا للشهادة يقذف فى قلبه ثورانا لا يهدأ حتى يأخذ أهبته ويلبس عدته وينطلق إلى المعركة الناشبة ليدمر الباطل ويسحق الظلم، ولن يعود منه إلا رفاته أما روحه فكانت الوهج الذى أذاب بأس الكافرين ثم صعد به إلى عليين.

۞ أشيعوا الحرية والعدالة والفضيلة، أقيموا فرائض الإسلام على أنقاض الوثنية السياسية والاجتماعية، تظفروا بوضع متناسق فى الداخل وكرامة موفورة فى الخارج وإلا .. فلا إسلام .. ولا سلام.

۞ أشد المشاكل تعقيدا ما كانت حلوله قائمة على البداهة وما كانت مفاتحه فى متناول اليد.

ذلك أن الذهن أول ما تصادفه معضلة يذهب بعيدا

ليكشف سرها، فإذا لم يكتنهه أبعد فى المذهب، وكلما عز عليه فقدانه وأوغل فى نشدانه ازداد حيرة وضلالا. ولو عاد حيث كان لوجد الحل قريبا منه. .

❁ المشكلة ليست فى معرفة الحق .. بل فى قول الحق مهما كانت النتائج.

❁ قد يكون الرياء من الصغار للكبار ابتغاء عرض الدنيا. وقد يكون من الكبار للصغار ابتغاء تأليف الاتباع، إذ يحب هؤلاء السادة أن يمهدوا لزعاماتهم بأعمال تزرع فى القلوب هيبتهم، وتجعل لجاههم فى الأرض دعائم مكينة، فيفعلون الخير لا لوجه الله ولا لحب الخير، بل ليلقوا به الجماهير المعجبة وتلتف حولهم الأعناق المشرئبة، فيكون رياؤهم امتدادا لكبريائهم.

❁ ضاعت تقاليد النبوة فى الحكم، ولم تقم بدلها تقاليد تدانيها وتتشبه بها، بل حلت مكانها تقاليد الحكم فى بلاد كسرى وقيصر وفرعون، وخرست الألسنة التى تشير إلى هذه السنن الدارسة، فإذا تسلى بها القصاص يوما، سلكت مع الخرافات البعيدة فى سياق واحد.

❁ إن تقليد الآباء، ومتابعة العرف، ومسايرة العوام، هى أشد العقبات التى قامت فى وجوه المصلحين.

❁ نحن فى أحكامنا ننظر إلى الحقائق لا إلى العناوين.

❁ إن عقول المستبدين لا تعرف مبدأ التفاهم ولا تطبق

الأخذ والرد للوصول إلى الحق. ويكاد لا ينبعث صوت للخير حتى يلاحقه سوط من الإرهاب يطلب إما إخراسه وإما قتله.

❁ ومطاردة الرأى الناصح يتبعها فساد المجتمع، حتى إذا انفرد الطغيان بالحكم قال لمن لا ينسجم معه: اخرج من هنا.

❁ قليل من الناس من ينكشف لهم خطؤهم القديم على عجل، وقليل ممن تعرفوا أخطاءهم يسارع إلى النزوع عنها والتزام سبيل الرشاد.

والمصلحون فى علاجهم لأمراض الأمم يعطون فرصا طويلة لشعوبهم حتى يتعلم الجاهل ويثوب الشارد. فالزمن جزء من العلاج، والصبر على لأواء الناس ضرورة لإنجاح الرسالات.

❁ لم تحمل ديانة ما فى طياتها عنصر الإكراه والقسر على الإيمان.

❁ الدعامة الأولى للتدين حرية العقل والإرادة.

❁ نحن نعلم أن للمسلمين والنصارى أخطاء لا يسأل عنها الإسلام ولا المسيحية، بيد أنه إذا كان لابد من الحديث عن السيف وانتشار المبادئ به، فأخر من يتكلم عن ذلك أهل أوروبا الذين لا ينتسبون فى أفعالهم إلى دين أو شرف.

❁ قطع النص عن السياق الذى جاء فيه والملابسات التى تكتنفه يؤدى بنا إلى إفساد النص ومسخ معناه .. أى إلى تحريف الكلم عن مواضعه، ولعل من ذلك قول الشاعر المهذار:

ما قال ربك ويل للألى سكروا

بل قال ربك ويل للمصلينا!

❁ قد يكون لحضارة أوروبا فضل القضاء على الرق الفردى، غير أنها لم تفعل ذلك تكريما للإنسان، واحتراما لحقوقه وتقديسا لحرياته..

كلا .. فقد استبدلت الرق الجماعى بالرق الفردى وتحولت من استذلال فرد لفرد إلى استذلال جماعة لجماعة، ولعل ذلك لا يعود إلى ترق فى طبيعة الإنسان بل إلى تحوير فى أساليب الطغيان.

❁ الحكومات التى تبنى وجودها على استلاب الآخرين لا ينتظر أن تؤدى ما عليها من حقوق، ومن العبث أن تنتظر من مستبعدى الأحرار أن يحرروا العبيد!

❁ والعلة الدفينة لهذه الفوضى السائدة أن المسلمين فقدوا روح الدين بل فقدوا نصوص الدين فى أنفسهم وجماعتهم.

❁ نحن فى أيامنا هذه لا نشكو فحسب من الشياطين الخرس التى تعرف الحق وتكتمه، بل نشكو من أن الولاة

الفجرة فى بلاد الإسلام يجدون من يعين على الشعوب معهم، ومن يصنعون الفتاوى المكذوبة لتسويغ مآثمهم، والدين وحده ضحية هذا الفجور من الظالمين والمظلومين والمسوغين والمقتنعين.

❁ لو يعلم الناس ما قصد إليه الإسلام من إقامة هذا المبدأ الخطير "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" لأيقنوا أنه وضع به أسس التمرد على المظالم والثورة على الفسوق، وتجرىء العامة فردا فردا على أن يصدعوا بالحق، وأن يصدعوا به رأس كل جبار عنيد.

ولن تتمثل الحرية فى أوسع مداها وأنبل غاياتها كما تتمثل فى هذه القاعدة الركينة من قواعد الإسلام.

❁ أما المسلمون اليوم فإن كبراءهم يخشون طلائع العلم بين الجماهير كما يخشى اللصوص مطلع الشمس وهم يلتفون بالظلام لسرقة الأنام.

❁ وقد أوجب الله طاعة أولى الأمر علينا، ما داموا منا، فقال: (وأولى الأمر منكم) "سورة النساء: ٥٩" ولن يكونوا مسلمين إلا إذا خضعوا لأحكام الدين، ولن يكونوا كذلك إلا إذا أحلوا حلاله وحرموا حرامه.

❁ الجريمة خروج على القانون، فإذا جاء حاكم ليجعل الجريمة نفسها قانونا يحتكم الناس إليه، فمن العبث وصف هذا العمل بأنه "إسلام".

❁ الحماسة للخير لا تعنى السفاهة على الناس وسوء الأدب فى عشرتهم والمتاجرة بأخطائهم، بغية فضحهم والتشهير بهم، فذلك كله ليس خلق المسلم ولا منهجه فى تدعيم الجماعة ورفع شأنها، فالحرية المطلوبة حدها الأعلى أن نتمكن من قول الحق، لا أن نتمكن من التطاول والبذاء.

❁ وترك الكفء وانتخاب غيره، لأنه ينتسب إلى فلان أو فلان ظلم لصاحب الامتياز بإهدار حقه، وظلم للمحظوظ بتكليفه فوق طاقته، وظلم للأمة، إذا فوتنا عليها الانتفاع بخبرات بنيها، وعرضناها لشرور عجزتها وسفلتها، ولم ذلك؟ لإرضاء نزعة طائشة.

❁ إن ألف معول نقضت بناء أمتنا حتى جعلته أطلالا وإن نصف هذه المعاول كان بأيدينا نحن أنفسنا، لأننا نتعلم من الماضى ما يزيدنا خبالا، وما يزيد الهوة سعة، ولو أننا درسنا تاريخنا على حاليه، وفتشنا فى أسباب الهزائم كما يفتش القائد فى ملابسات المعارك السابقة ليستفيد منها فيما يستأنف من نشاط، لكان ذلك أجدى علينا.

❁ ظلت الفجوة بين العلم والحكم قائمة إلى أمد طويل، وكان العلماء يجتهدون فى إفراغ ذمتهم حيال الأمانة التى ألقيت عليهم، أمانة الإبانة عن حقيقة الدين والنصح للحكام والمحكومين، وجار العنت على كثير منهم فهلك، وخلا الجو للحكام المستبدين فضلوا وأضلوا.

❁ إن على العلماء اليوم واجبا ثقيلا، وهما طويلا، ولن

يبقى فساد الحكم يوما أو بعض يوم إذا نهض الدعاة إلى الله بأعباء الفريضة المنوطة بهم فأيقظوا النيام ولفتوهم إلى الأصنام.

❁ أشهد ما علمت أن دعاء المظلوم من أسباب الكون الفعالة، ومن قواه المسخرة إلا فى هذه الأوقات العصيبة .. طالما دعونا ورجونا، ووقفنا فى ساحة الله مبتهلين، فإذا به يملى للظالم فى الاستكثار من الأوزار التى يحملها حتى بهظته الأثقال، فما زال ينوء تحتها حتى انقصم ظهره فأخلد إلى الأرض.

❁ المسلمون أحوج أهل الأرض إلى الرواد الذين يمهدون لهم سبيل الكرامة ويدفعون عنهم مكايد العسف.

ونحن لن نتوانى عن أداء واجبنا الذى يسرنا الله له، وأعاننا عليه.

وسنظل نساند قضايا الحق، ونناصر أهله حتى نلقى الحق جل شأنه صادقين أوفياء.

❁ ولما كان الإسلام إنقاذا للناس من جهالاتهم المتوارثة، وحماية للفطرة من أن تأكلها تقاليد السوء وقوانين الاستبداد الأعمى، فقد جعل كلمة التوحيد - وهى عنوانه وحقيقته - نفيا للوثنيات كلها ورفضا لأية عبودية فى الأرض وتدعيما للحرية التى ذرأ الله الناس عليها والكمال الذى رشحهم له.

ذلك بعض ما تعنيه الكلمة العظيمة "لا إله إلا الله" .. وهى الكلمة التى يرددها الألوف دون وعى .. بل لعلهم يعيشون فى ظلها عبيد أوهام.

❁ الاضطهاد لا يقتل العقائد.

❁ لا بد فى كل إيمان صحيح من ركيزتين يمدانه بالحياة والقوة: استثارة القلب ويقظة الوعى.

❁ عادت الجاهلية إلى الدنيا مرة أخرى، وأظلمت الأرض بعد إشراق، وسيطر الغرب على ميراثنا الضخم، وسوانا فى رقه بعباد البقر ومن لا دين لهم، بل جعلنا دونهم.

وبقى علينا أن نختار بين الخنوع المميت فى كنفه، أو الرجعة العزيزة إلى الله وإلى دينه النظيف من لوثات المستبدين والكبراء.

❁ أمد بصرى اليوم فى بعض بلاد الإسلام أو فى كثير منها فأرى هذا السوء المضاعف، أسمع عواء الذئاب البشعة من لحوم الضحايا، وأنينا خافتا للمظلومين المأكولين، وتعليقا محايدا للجبناء الذين نجوا بجلودهم من المخالب الباطشة.

❁ نحن نؤكد أن الأمة التى لا تتربى لا تفلح، ولا يقوم بها جهاز إدارى محترم، وقد تكون الجامعات بها قصورا شامخة لكنها مبنية على أسس واهية.

فلنرب أنفسنا وأمتنا لنضمن الحاضر والمستقبل.

۞ والفقهاء المحققون إذا أرادوا بحث قضية ما، جمعوا كل ما جاء فى شأنها من الكتاب والسنة، وحاكموا المظنون إلى المقطوع، وأحسنوا التنسيق بين شتى الأدلة.

أما اختطاف الحكم من حديث عابر، والإعراض عما ورد فى الموضوع من آثار أخرى فليس عمل العلماء.

وقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمى هم القادة الموثقون للأمة، الذين أسلمت لهم زمامها عن رضا وطمأنينة، وقنع أهل الحديث بتقديم ما يتناقلون من آثار كما تقدم مواد البناء للمهندس الذى يبنى الدار، ويرفع الشرفات.

والواقع أن كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر، فلا فقه بلا سنة ولا سنة بلا فقه، وعظمة الإسلام تتم بهذا التعاون.

والمحنة تقع فى اعتزاز أحدهما بما عنده وتزداد مع الإصرار وضعف البصيرة.

۞ لا فقه مع العجز عن فهم الكتاب ومع العجز عن فهم الحياة نفسها.

۞ النعى المحظور ما قارنه الرياء وإحياء العصبية أما الإخبار المعتاد فيستحيل كرهه.

۞ ما أكثر الأحاديث المنتشرة اليوم بين الشباب، يستنتجون منها أحكاما سيئة، إن قبلنا سندها على إغماض فإن متنها لا يصح قبوله.

❁ المهم أن نعرف رسالتنا بصدق، وأن نطبقها على أنفسنا بوفاء، وأن نبلغها إلى الناس سماوية لا يعلق بها من أكدار الأرض قذى ينفر منها أصحاب الفطر السليمة.

❁ أننا في ميدان الشهادة لا نحمي دماء الناس وأعراضهم،وأموالهم بشهادة رجل واحد مهما كانت جلالته، إننا نطالب شاهدين أو أربعة في الإثبات، ودين الله أهم من دنيا الناس.

❁ إن وسائل الإعلام لو أحسنا استغلالها تصنع الكثير، ولكن ذلك لا تستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة في الحياة، أما الأمة الذنب فقد سقط عنها التكليف لأن غيرها يشدها.

❁ الحظ أن الأمة العربية والإسلامية تريد أن تعمل قليلا وتغني كثيرا، والاستجمام حق المرهقين لا حق القاعدين!

❁ لقد شرح القرآن الكريم عداوة إبليس وذريته لآدم وبنيه، وبين أن هذه العداوة لا تعدو الوساوس والخداع.

وليس يملك الشيطان في هذا الهجوم شيئا قاهرا، إنه يملك استغفال المغفلين فحسب. إن الشيطان لا يقيم عائقا ماديا أمام ذاهب إلى المسجد، ولا يدفع سكرانا في قفاه ليكرع الإثم من إحدى الحانات! إنه يملك الاحتيال والمخادعة، ولا يقدر على أكثر من ذلك.

هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم؟ لماذا لم يشك ألماني أو ياباني من احتلال الجن

لأجسامهم؟!

❁ إن المسلم الحق يخاصم الأوهام ويصادق اليقين ولا تستفزه ترهات المرضى.

❁ المرض الحقيقى عند قوم يتهمونك بأنك تنكر الجن وعالم الغيب، لأنك ترفض أوهامهم، أولئك بلاء على الإسلام.

❁ إن الإيمان أساس، والجهاد حارس، وستبقى الحراسة فريضة قائمة ما بقى فى الدنيا من يهدم الأمان، ويستنكر الإيمان.

ومعنى هذا أن الجهاد وسيلة وليس غاية، ويوم تسود الحريات أرجاء الحياة، وتنمو أعواد التوحيد فلا يرى من يكسرها أو يحرقها، فلا قتل ولا قتال، نعم لا قتال حيث تستخفى الفتن وتشيع العدالة.

❁ اليوم توجد طفولة إسلامية تريد الانفراد بزمام الأمة، وعندما يسمع أولو الألباب حديثها يطرقون محزونين.

والمخيف أنها طفولة عقلية تجمع فى غمارها أرباب لحى، وأصحاب هامات وقامات! يقعون على أحاديث لا يفهمونها. ثم يقدمون صورة للإسلام تثير الانقباض والخوف.

❁ القرآن هو الإطار الذى تعمل الأحاديث فى نطاقه لا تعدوه، ومن زعم أن السنة تقضى على الكتاب، أو تنسخ أحكامه فهو مغرور،

۞ إن ركاما من الأحاديث الضعيفة تملأ آفاق الثقافة الإسلامية بالغيوم، وركاما مثله من الأحاديث التى صحت، وسطا التخريف على معناها، أو لابسها كل ذلك جعلها تنبو عن دلالات القرآن القريبة والبعيدة.

وقد كنت أزجر بعض الناس عن رواية الحديث الصحيح حتى يكشفوا الوهم عن معناه، إذا كان هذا المعنى موهما، مثل حديث "لن يدخل أحد الجنة بعمله"!

إن طوائف من البطالين والفاعلين وقفت عند ظاهره المرفوض، وحسبوا أن الجنة تدخل دون عمل، وتناسوا عامدين عشرات الآيات التى تجعل دخول الجنة نتيجة عمل واجب.

۞ واضطراب القول يقع فى الأمور الغيبية كما يقع فى الأمور التكليفية العملية ولا يضير الإسلام أن تتشابه الأمور على أحد الرواة، فالكتاب معصوم والسنة فى جملتها سليمة، وليس العجب من غلط يقع فيه راو وإنما العجب من قبول هذا الخطأ ثم الحماس فى الدفاع عنه، ولم يكن ذلك شأن الأئمة ولا منهج السلف والخلف.

۞ أن هناك سؤالا لا نوارب فى الإجابة عليه، هل محاربة الإسلام ذاته تحت عنوان محاربة التطرف لون من الديمقراطية؟ هناك سلطات فى العالم العربى والإسلامى تكره كل الكره ما أنزل الله، وتثور ثائرتها إذا رأت فتاة مستورة الرأس والأذرع، وترفض بغضب كل صيحة لإلغاء

الأحكام التى جلبها الاستعمار العالمى عندما طوانا تحت رايته. فهل هذه ديمقراطية؟ أم أنها امتداد للإذلال القديم والغارة الصليبية على العالم الإسلامى؟

إن هناك من يريد قتل الشعب باسم الشعب، ووأد الحرية باسم الحرية، وفى مزبلة التاريخ - كما قلنا آنفا - زعماء من هذا القبيل المحقور، فعلوا بالمسلمين الأفاعيل.

وهناك من رجال الدين من يمشى فى مواكبهم راغبا فى دنياه، زاهدا فى أخراه، مستوجبا لعنة الله.

إن للغايات الجليلة وسائل نبيلة تعين على إدراكها، ومن غير هذه الوسائل يصعب أن تقوم شورى صحيحة كما يصعب أن يقوم جهاد نزيه ناجح.

❁ البشر جنس محكوم ومختار فى آن واحد، إنه محكوم بالإمكانات التى فى كيانه والملابسات التى من حوله، ومختار فى مواقفه من هذه وتلك.

ونريد أن نقول مصارحين وحاسمين إننا لن نسأل أبدا عما لا إرادة لنا فيه، ولكنا نسأل يقينا عما نملك فيه حرية الاختيار.

وبعض الناس يحلو لهم الخلط بين الأمرين أحيانا، وهذا لون من الجدل المحقور والمشاقة لله ورسوله.

❁ عقيدة الجبر تطويح بالوحى كله، وتزييف للنشاط الإنسانى من بدء الخلق إلى قيام الساعة، بل هى تكذيب لله

والمرسلين قاطبة.

❁ فى يوم الحساب يحصد الناس ما زرعوا لأنفسهم، والقرآن حريص كل الحرص على إعلان هذه الحقيقة: وهى أنك واجد ما قدمت .. لن تؤاخذ أبدا بشيء لم تصنعه، لم تغلب على إرادتك يوما فيحسب عليك ما لم تشأ .. إن المغلوب على عقله أو قصده لا يؤاخذ أبدا، بل إن التكليف يسقط عنه.

❁ على الذين يقرءون الأحاديث أن يتفقهوا، وأن يدرسوا الملابسات والتواريخ والأحوال، وقد قلت وما زلت أقول لا سنة بلا فقه.

الفهرس

للمؤلف

سنة

مواقف واتجاهات

المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١ ١٩٦٩

دار سنابل ط٢ ١٩٩٤

مسرح محمد تيمور

المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ط١ ١٩٧٥

دار سنابل ط٢ ١٩٩٤

مسرحيات فى الوهج والظل

كتاب الهلال - دار الهلال ط١ ١٩٧٦

دار سنابل ط٢ ١٩٩٤

فى القصة القصيرة

المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٧٦

وجوه قصصية قديمة وجديدة

اقرأ - دار المعارف ط١ ١٩٧٨

دار سنابل ط٢ ٢٠٠١

يوسف السباعى بين الأيام والليالى

الكتاب الذهبى - روز اليوسف ط١ ١٩٧٩

دار سنابل ط٢ ٢٠٠١

عالم يوسف السباعى

المجلس الأعلى للفنون والآداب ط١ ١٩٧٩

دار سنابل ط٢ ١٩٩٤

محمد السباعى الأديب الذى سبق عصره

المركز القومى للفنون والآداب

كتاب المواهب ط١ ١٩٨٢

دار سنابل ط٢ ١٩٩٨

أجيال ضد الماركسية

دار الأصالة للثقافة والنشر بالرياض ١٩٨٤

عاشق الحرية ولى الدين يكن

أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧

دراسات نقدية

المكتبة الثقافية - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠

قلوب عاشقة دار سنابل ١٩٩٣

مجالات إسلامية	دار سنابل	١٩٩٤
فنان زمان	دار سنابل	١٩٩٥
الفنان والحب	دار سنابل	١٩٩٥
إسماعيل مظهر رجل الفكر وعاشق الحرية		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٥
زكى مبارك عملاق الأدب		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٥
أنيس منصور بين بلاد الله وخلق الله		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٥
محمد طلعت حرب والعبقرية المصرية		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٥
أحمد حسن الزيات والقرية		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٥
فرح أنطون والمسرح		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦

شعراء اليقظة الإسلامية فى بداية القرن العشرين		
	دار سنابل	١٩٩٦
عواطف مضطربة	دار سنابل	١٩٩٦
مع الأدباء العرب	دار سنابل	١٩٩٦
أحمد أمين والروح الإسلامية		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦
دفاعا عن الحق	دار سنابل	١٩٩٦
م.ع. الهمشرى شاعر الريف		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٦
ولى الدين يكن وحياة عاصفة		
	دار سنابل	١٩٩٦
الشعر والشعراء	دار سنابل	١٩٩٧
بواكير	دار سنابل	١٩٩٧
نساء ورجال	دار سنابل	١٩٩٧
محمود مختار وضمير الأمة		
(شخصيات لامعة)	دار سنابل	١٩٩٧

مجموعات	دار سنابل	١٩٩٧
روايات مشهورة	دار سنابل	١٩٩٧
ألوان من الشخصيات	دار سنابل	١٩٩٧
رواد ورائدات	دار سنابل	١٩٩٧
رؤية	دار سنابل	١٩٩٧
خمسون كتابا	دار سنابل	١٩٩٧
أجيال روائية	دار سنابل	١٩٩٧
الحرية تنادى عشاقها	دار سنابل	١٩٩٧
مسرح ومسرحيون	دار سنابل	١٩٩٧
غرام رجل السياسة ورجل المسرح	دار سنابل	١٩٩٨
طه حسين والمرأة	دار سنابل	١٩٩٨
جولة قصصية	دار سنابل	١٩٩٨
ملامح فكرية	دار سنابل	١٩٩٨
جوته الشاعر والحب	دار سنابل	١٩٩٨

شخصيات يوسف السباعى

دار سنابل ١٩٩٨

يوسف السباعي ناقدا دار سنابل ١٩٩٨

قيم روحية دار سنابل ١٩٩٨

أديب إسحق عاشق الحرية

"تاريخ المصريين" - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨

الحياة والفكر ومحمد السباعى

دار سنابل ١٩٩٩

أربعون كتابا دار سنابل ١٩٩٩

مى زيادة دار سنابل ١٩٩٩

شيخ مستنير ... مصطفى عبد الرازق

دار سنابل ١٩٩٩

واقع وخيال دار سنابل ١٩٩٩

أصداء خافتة دار سنابل ١٩٩٩

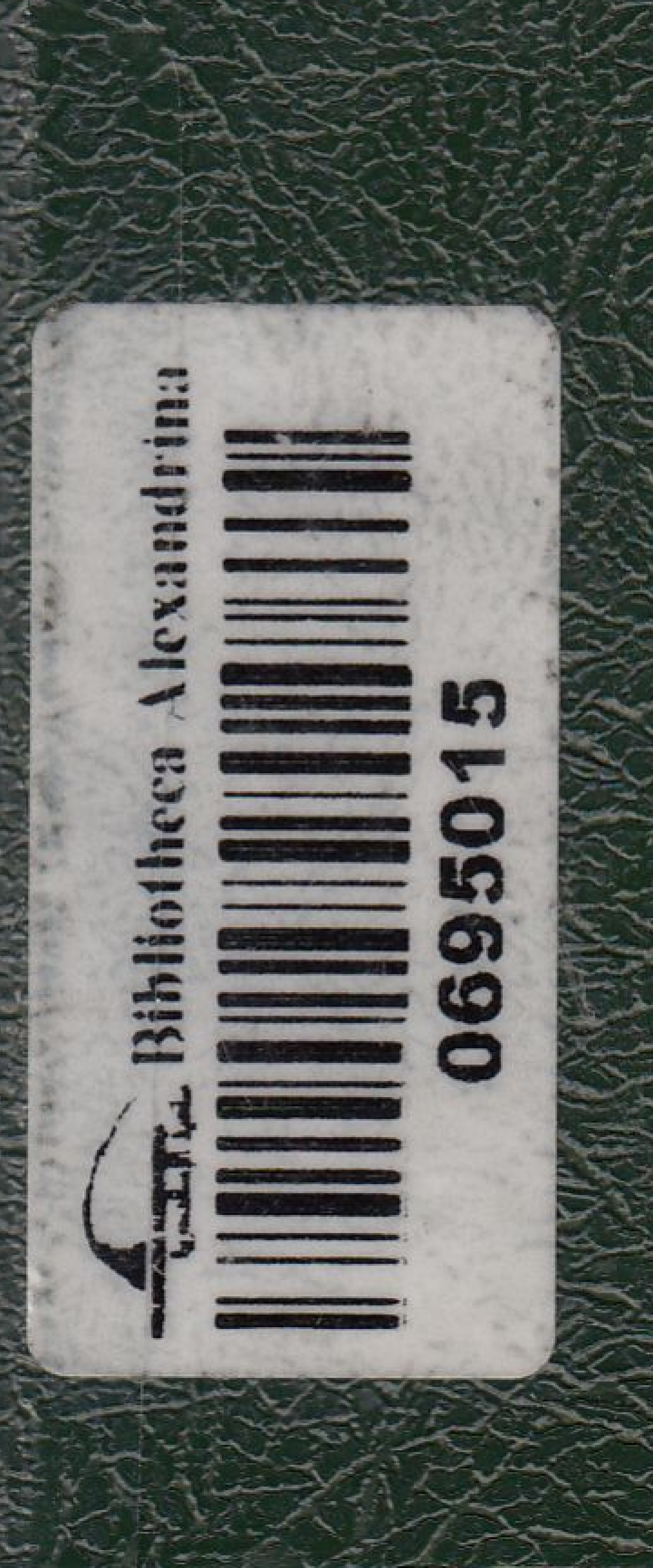
فى مرآة الآخرين دار سنابل ١٩٩٩

يوسف السباعى .. قصص وروايات		
	دار سنابل	١٩٩٩
وجها لوجه مع الشيوعية	دار سنابل	١٩٩٩
ثلاثون كتابا	دار سنابل	٢٠٠٠
محمود البدوى	دار سنابل	٢٠٠٠
أغنيات يوسف السباعى		
	دار سنابل	٢٠٠٠
قصص هؤلاء	دار سنابل	٢٠٠٠
فى عيون حواء	دار سنابل	٢٠٠٠
أقلام مكافحة	دار سنابل	٢٠٠٠
قالوا فى الإسلام والمسلمين		
	دار سنابل	٢٠٠٠
شخصيات لها قصص	دار سنابل	٢٠٠٠
عشرون كتابا	دار سنابل	٢٠٠١
فارس الحرية عبد الرحمن الكواكبى		
	دار سنابل	٢٠٠١

نبضات محمد الغزالى	دار سنابل	٢٠٠١
قمم وأعلام	دار سنابل	٢٠٠١
عشرة كتب	دار سنابل	٢٠٠١
محمد الغزالى ودفاع عن الإسلام	دار سنابل	٢٠٠١
فى السينما المصرية	دار سنابل	٢٠٠١
السينما عندنا هبوط مزمن	دار سنابل	٢٠٠١
محمد الغزالى وهموم المسلمين	دار سنابل	٢٠٠٢
متابعات	دار سنابل	٢٠٠٢
معارك محمد الغزالى	دار سنابل	٢٠٠٢
محمد الغزالى وتحطيم القيود	دار سنابل	٢٠٠٣
حارس العقيدة محمد الغزالى	دار سنابل	٢٠٠٣
تنويعات	دار سنابل	٢٠٠٤
كلمات خضراء	دار سنابل	٢٠٠٥
قسمات يوسف السباعى	دار سنابل	٢٠٠٥
دفاع عن الإسلام - نبضات محمد الغزالى	دار سنابل ط١	٢٠٠٦
	دار سنابل ط٢	٢٠٠٨
قضايا وهموم	دار سنابل	٢٠٠٦

دار
سنابل
للطبع والنشر والتوزيع
المنصورة: ١١٢ ش السكة القديمة

دار سنابل للنشر والتوزيع
المنصورة ١١٢ شارع السكة القديمة


Bibliotheca Alexandrina
0695015